الدكتور / حسن أحمد الكبير
عميد كلية اللغة العربية
بالزقازيق

نصوص
من الأدب الحديث
دراسة وتحليل

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

مقدمـــــة

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلـم ، والصلاة والسلام على خير خلق الله ، وعلى آله وصحابتـــه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .. وبعـــد :

فهذه دراسة موجزة لبعض النصوص الأدبية فى العصـــر الحديث ، ومعلوم أن العصر الحديث يموج بتيارات متعددة ومذاهب فكرية وصلت إلى حد التعارض والتناقض ، ولن نستطيع أن نغفل ذلك عند عرض نصوص هذا العصر ، إذ لابد مـــن التعرف على معظم الاتجاهات الأدبية والفكرية فى هذا الزمن ، والوقوف على حركة التطور التى شملت مناحى الحياة الفكريـــة والأدبية خاصة . إلا أن المنهج الدراسى لا يتسع لذلـــك كله ، ولذلك فنحن مضطرون إلى الاقتصار على التمثيـــــل للظواهر التى تمثل اتجاها جديدا أو منطلقا فكريا له أهميتـه فى الحركة الأدبية المعاصرة ، كحركة البعث والإحياء التـى كان لها أكبر الأثر فى نهضة الشعر العربى والتخلص مـــن قيوده التى كبل بها ، ثم ما كان للمدرسة المجددة مـــن إبداعات رائدة فى الشعر العربى خاصة ، وكجماعة الديـوان التى أثرت الحياة الفكرية والأدبية واستطاعت أن توجـــه الأدب بشقيه: النثر والشعر وجهة جديدة ، ثم جماعة أبوللـو وما لها من انطلاقات جريئة فى الشعر خاصة ، ثـــم أدب المهجر وما تميز به من اتجاه إنسانى رحب فى النثر والشعـر

ولهذا ستكون النصوص المختارة بمثابة أزاهير من روضة غنـــاء تعطى انطباعا عاما عما كان عليه الأدب فى بداية هـذا العصـــر ثم ما تبـع ذلك من تطور فى أسـلوبه وأفكاره ومعانيـه وصوره .

كما تعتمد هذه الدراسـة على ربـط النص بقائله والكشـــف عـن أبرز الخصائص التى تميز بها أدبه .

والله أسأل أن يكون فـى هذه الاختيارات وما اشتملت عليـــه من دراسـة النفع الذى نبتغيـه لأبنائنا الطلاب ، والـزاد الـذى يعينهـم على تحصيـل العلم المفيـد والمعرفة الحقـة .

المعادى الجديدة

فى ١٩٩٨/٢/١٠م .

أ.د / حسن أحمد الكبيـر
عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق
أستاذ الأدب والنقـــد

تمهيـــــــد

بداية النهضة الأدبية فى العصر الحديث :

إذا كان المؤرخون قد اصطلحوا على جعل الحملـــــــة الفرنسية على مصر والشام سنة ١٧٩٨م(١٢١٣هـ) بدايـــــة لفجر النهضة فى الشرق لأنها كانت أول اتصال حقيقى بـــين الشرق والغرب منذ الحروب الصليبية ، أطلع العرب علـــى بعض وجوه الحياة الأدبية ، وما تتميز به من نشاط ملحـــوظ فى الميادين الثقافية والاجتماعية وغيرها ، فدبت الحياة فـــى أوصالهم ، واستيقظوا من سباتهم العميق الذى ران عليهـــم خلال ثلاثة قرون (هى فترة الحكم التركى ٩٢٣ ـ ١٢١٣هـ) (١٥١٧ ـ ١٧٩٨م) . إذ تقرر ذلك لدى المؤرخين ، فإن النهضة الحقيقية للأدب العربى الحديث لم تظهر فى رأينــا إلا فى أواخر القرن التاسع عشر حين زالت الموانع الحقيقيـــة للنهضة وتتابعت وسائلها وتلاحقت وتقدمتها أسبابها الكثيرة .

فقد عاد إلى مصر طائفة من المبعوثين أسهمت بأفكارهـا الجديدة وثقافتها الحديثة فى الحركة التعليمية أيام إسماعيل ، كما نشطت الحركة فى إحياء التراث العربى لمواجهة الثقافـة الغربية الوافدة بثقافة عربية أصيلة ، فأخرجت المطبعة الكتب العديدة فى شتى الفنون والآداب فى مصر والشام والعراق ، وأنشئت مؤسسات ثقافية وسياسية مختلفة ، فأقيمت دار الكتب سنة ١٨٧٠م ، وصدرت الصحف الرسمية " كالوقائع الرسميـــة " " وروضة المدارس" و " نزهة الأفكار" و " أبو نضارة " ، كما هاجر

بعض أبناء الشام إلى مصر فرارا من نير الحكم التركى الجائر ، وأسهموا بجهودهم النشيطة فى نمو الوعى القومى بما كتبوه وأذاعوه فى الصحف اليومية التى أنشئوها ، كما كانت دعوة (جمال الدين الأفغانى)(١٨٣٩ – ١٨٩٧م) وما بثه من أفكار وآراء فى الإصلاح الدينى والاجتماعى ، والتحرر القومى ، ذات آثار بعيدة المدى فى أفكار الشباب واتجاهاتهم .

كل هذه العوامل كانت تتشابك وتتلاحق مع الأحداث السياسية ، وفى مقدمتها قيام الثورة العرابية فى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١م . وما صاحبها من وعى قومى كان من آثاره الثورة على الضباط الأتراك ، والمطالبة بالدستور ، وقيام شعراء وخطباء يلهبون المشاعر ويثيرون الوعى القومى فى نفوس الجماهير ، ويوجهون أنظارهم إلى حقوقهم وواجباتهم ، ثم فشل الثورة العرابية وما تركه ذلك فى النفوس من آثار وخيبة أمل ، ومعنى ذلك أن صفحات جديدة قد فتحت فى تاريخ تلك المنطقة ومعناه أيضا أن تجارب وأفكار جديدة قد بدأت تزحف إلى العقول وهذا هو كل ما تحتاجه البلاد فى نهضتها : أسواط ومدافع ومحاكم ومشانق وثورة واعتقالات ونفى وتشريد وكفاح موفق أو غير موفق[1] .

هذه التغيرات التى دبت فى أوصال المجتمع وحركته من سباته العميق هى فى الواقع كافية لتغيير مجرى الأدب وتوسيع

---

(١) انظر : تاريخ الشعر العربى : ٤/١٦٥ .

روافده مما يجعلنا نقرر بلا تردد: أن ثورة عرابى كانت البداية الحقيقية للأدب العربى الحديث ، أما ما سبق ذلك من اصلاحات ونهضة واضحة فى المجالات العلمية البحتة والمادية والفكرية ، فإنها كانت بمثابة التمهيد والتوطئة للنهضة الحديثة التى كانت الثورة العرابية البداية الحقيقية لها ، ونقطة الانطلاق للشعر العربى خاصة ، فقد ظهرت البواعث الحقيقية لصوغ الشعر ومواكبته لهذه الثورة بعد أن كانت مفقودة أو محجوبة وأخذت الأذواق التى أثرت فيها الأحداث الجديدة تحل محل القواعد الدراسية الرتيبة التى كان الشعراء يسيرون عليها ، فقد صار الاشتغال بقضايا الشعب العربى أهم موضوعات الشعر وطغى على ما عداه من أغراض تقليدية من مدح وفخر وغزل ، وانزوى انزواء واضحا كل ذلك بفضل تلك الأحداث التى حركت المشاعر والوجدان وأثارت النفوس واستثارت حواسها الأدبية .

كما استتبع ذلك ظهور طبقة الرواد من المفكرين الذين كان فى مقدمتهم رائد الحركة الفكرية الإصلاحية الشيخ (جمال الدين الأفغانى) وتلميذه (الشيخ محمد عبده) ثم : (عبدالرحمن الكواكبى ، والشيخ على يوسف ، ومحمود سامى البارودى ، وعبدالله نديم) وغيرهم من أرباب الفكر والقلم الذين أثروا الحياة الأدبية ثراء عظيما حتى لم يكد يبدأ القرن العشرين إلا وكانت هناك كوكبة من الأدباء والشعراء ورواد الحركة الأدبية هزوا الفكر والوجدان العربى هزا عنيفا

بما أثاروه من قضايا أدبية وما اتجهوا إليه من أساليب جديدة في معالجة القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية وامتلأت الساحة الأدبية بأساطين الفكر والبيان ، وظهرت مناهج وفنون جديدة وجهت الأدب العربي وجهة جديدة كانت خيرا وبركة على الفكر العربي كله .

* * *

النص الأول : لمحمود سامي البارودي

من قصيدة قالها بعد وصوله إلى جزيرة سرنديب (سرى لانكا) وقد رأى ابنته الوسطى في المنام ، والتي تبدأ بقوله :

تَأَوَّبَ طَيْفٌ مِنْ " سَمِيرَةَ " زَائِرُ
وما الطَّيْفُ إلا ما تُرِيهِ الخَواطِرُ

يقول مفتخرا :

عَلَيَّ طِلَابُ العِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ
ولا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي المَقَادِرُ (١)

فما كُلُّ مَخْلُولِ العَرِيكَةِ خَائِبٌ
ولا كُلُّ مَحْبُوكِ التَّرِيكَةِ ظَافِرُ (٢)

فَمَاذَا عَسَى الأَعْدَاءُ أَنْ يَتَقَوَّلُوا
عَلَيَّ ، وعِرْضِي نَاصِعُ الجَيْبِ وَافِرُ (٣)

فلى فى مُرادِ الفضلِ خيرُ مغبّةٍ
إذا مَانَ حيٌّ بالخيانةِ ذاكرُ (٤)
ملكتُ عقابَ المُلكِ وهْىَ كسيرةٌ
وغادرْتُها فى وكْرِها وهْىَ طائرُ (٥)
ولو رُمْتُ ما رام امرؤٌ بخيانةٍ
لصبّحني قِسْطٌ من المالِ غامرُ (٦)
ولكنْ أبتْ نفسُ الكريمةُ سَوْأةً
تُعابُ بها، والدهرُ فيه المعايرُ (٧)
فلا تحسبنّ المالَ ينفعُ ربَّهُ
إذا هو لم يَحْمَدْ قِرَاهُ العشائرُ (٨)
فقدْ يَسْتَجِمُّ المالُ والمجدُ غائبٌ
وقد لا يكون المالُ والمجدُ حاضرُ (٩)
ولو أنّ أسبابَ السّيادةِ بالغنى
لكاثرَ ربَّ الفضلِ بالمالِ تاجرُ
فلا غروَ أنْ حُزْتُ المكارمَ عارياً
فقدْ يَشْهَدُ السيفُ الوغى وهْوَ حاسرُ (١٠)
أنا المرءُ لا يُثْنيه عن دَرْكِ العُلا
نعيمٌ، ولا تَعْدُو عليه المَفاقرُ (١١)
قَئُولٌ وأحلامُ الرجالِ عوازبٌ
صَئُولٌ وأفْواهُ المنايا فواغرُ (١٢)
فلا أنا إنْ أدْناني الوُجْدُ باسمٌ
ولا أنا إنْ أقْصاني العُدْمُ باسرُ (١٣)

فما الفقرُ إنْ لم يدْنسِ العِرْضَ فاضحٌ
ولا المالُ إنْ لم يشْرُفِ المرءُ ساترُ
إذا ما ذُبابُ السَّيْفِ لم يكُ ماضيـًا
فحليتُه وصْمٌ لدى الحرْبِ ظاهـرُ (١٤)
فإنْ كنْتُ قد أصْبحْتُ فَلَّ رزيـةٍ
تقاسمها فى الأهل بادٍ وحاضـرُ (١٥)
فكم بطلٍ فَلَّ الزمانُ شباتــه
وكم سيِّدٍ دارتْ عليه الدَّوائـرُ (١٦)
وأىُّ حسامٍ لم تصِبْـهُ كلالـةٌ ؟
وأىُّ جوادٍ لم تخُنْهُ الحوافـرُ ؟ (١٧)
فسوف يبينُ الحـقُّ يومًـا لناظرٍ
وتنـزو بعوْراءِ الحقودِ السَّرائرُ (١٨)
وما هى إلا غمـرةٌ ثم تنجلـى
غيابتُها ، واللّهُ منْ شاءَ ناصـرُ (١٩)
فقد حاطنى فى ظُلْمةِ الحبْسِ بعْدما
ترامتْ بأفلاذِ القلـوبِ الحناجرُ (٢٠)
فمهْلاً بنى الدُّنيـا علينـا فإنَّنـا
إلى غايةٍ تنفتُّ فيها المرائـرُ (٢١)
تطول بها الأنفاسُ بُهْرًا وتلْتـوى
على فلْكةِ السَّاقين فيها المـآزرُ (٢٢)
هنالك يعْلو الحقُّ ، والحقُّ واضحٌ
ويسْفُلُ كعْبُ الزُّورِ والزُّورُ عاثـرُ (٢٣)

وعمّا قليلٍ ينتهى الأمرُ كُلّــــه
فما أولٌ إلاّ ويتلــوه آخــرُ (١)

الشاعــــر :

محمود سامى حسن البارودى (١٨٣٨ - ١٩٠٤م) ، ولد لأبوين من الجراكسة الأتراك ذات نسب وجاه قديم ، وكان أبوه من أمراء المدفعية فى عهد محمد علــــى (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) ثم صار مديرًا لبربر ودنقلة بالسودان .

والبارودى نسبة إلى "إيتاى البارود" بمديريــــة البحيرة ، وكان أحد أجداده ملتزما لها ، وينتسب أجداده إلى حكام مصر والمماليك ، توفى والده وهو فى السابعة من عمره ، فكفله بعض أهله وتلقى تعليمه الأول فى البيـت حتى بلغ الثانية عشرة من عمره ، فألحقه أهله بالمدرسة الحربيــــة مع أمثاله من الجراكسة والأتراك ، وأبناء الطبقة الحاكمــــة وتخرج فيها سنة ١٨٥٤م وهو فى السادسة عشرة من عمــره ، فى عهد عباس الأول .

وكان عباس الأول من المعوقين للنهضة ، فخمدت الروح العسكرية فى عهده ، ولم يجد البارودى عملا عسكريا ، وكم كان يود أن يحقق عن طريق العسكرية آمالا ضخمة ، فحـــاول أن يجد عوضا عن ذلك ، فانتهز هذا الفراغ وأكب على قــــراءة الأدب العربى ، وكانت ملكة الشعر كائنة فى حناياه ، فـــراقه

(١) ديوان البارودى ٢ / ٨٤ وما بعدها .

من التراث الأدبى شعر الحماسة والفخر ووصف ميادين القتال وأعمال الأبطال ، ورأى فى هذا الأدب تصويرا حقيقيا للحياة حلوها ومرها من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ، فازداد شغفه به وحرص على حفظه ، والتغنى به وتحركت كوامن الملكة الشعرية فى حناياه ، وأخذ يردد الشعر ويترنم به إلا أنه ضاق بالفراغ فرحل إلى الآستانة والتحق بوزارة الخارجية وهناك أتقن التركية وتعلم الفارسية ودرس آدابها وحفظ كثيرا من أشعارها ، ودعته سليقته الشاعرة إلى النظم بالتركية والفارسية .

ولما سافر إسماعيل إلى تركيا مقر الخلافة الإسلامية ليقدم الشكر على توليه عرش مصر سنة ١٨٦٣م ألحق البارودى بخدمته لإعجابه به ، وعاد معه إلى مصر ، ثم عين فى سلاح الفرسان ، وظل يرتقى فى مناصب الجيش ولما أعلنت روسيا الحرب على تركيا سنة ١٨٧٨م اشترك البارودى فى الجيش الذى أرسله إسماعيل لمعاونة الخليفة فى هذه الحرب وأبلى فى المعارك بلاء حسنا فأنعم عليه الخديو برتبة " اللواء "وبعدة أوسمة ، ثم عين مديرا للشرقية ، وكان قد بلغ الأربعين ، ثم عين محافظا للقاهرة ، وفى عهد توفيق عين البارودى وزيرا للأوقاف ، ثم وزيرا للحربية .

وكانت حركة الجيش التى مهدت للثورة العرابية قد بدأت فشعر رئيس الوزراء رياض باشا حينذاك بميول البارودى الشعبية

ولاحظ عطفه على الثورة فأوغر عليه الخديو توفيق ، فاضطر البارودى إزاء هذه الجفوة إلى الاستقالة ، وذهب إلى الريف وأقام به وهناك نظم قصيدته التى ينعى فيها على المكائد السياسية والتى يقول فيها :

وَخلّنا من سِياسةٍ دَرَجَتْ
بين أُناسٍ قُلوبُهمْ وَغِرَةْ
يَقْضُونَ أَيّامَهم على خَطَرٍ
فَبِئْسَ عُقبى السِّيَاسَةِ الخَطِرَةْ(١)

ولما اشتدت حركة الجيش وأُقيل رياض وتولى محمد شريف ، عاد البارودى إلى الوزارة ، ثم ما لبث أن تولى رياسة الوزارة وحاول أن يوفق بين توفيق والخديو ، ولكن الأمور سارت بسرعة وتعقدت أمامه ، فانضم للثوار ولما أحس أن انجلترا وفرنسا يبيتان لمصر الشر ، نصح الثوار بالتراجع ولكن الأمور سارت لغايتها وقامت الثورة وتدخل الإنجليز وفشلت الثورة ، ونفى زعماؤها إلى سونديب ، ومن بينهم البارودى حيث مكث فيها سبعة عشر عاما (١٨٨٢ ـ ١٩٠٠م) قال فيها القصائد الخالدة يبثها شكواها وحنينه إلى وطنه ، ويصف كل ما حوله ويراسل الأدباء ويرثى من مات من أهله ، وأصدقائه .

(١) انظر القصيدة : فى ديوان البارودى ٢/ ٩٣ القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٢م .

وهناك تعلم الانجليزية وقرأ بها وتمكن منها ، الا أن طول النفى أورثه السقم والملل والعلل وضعف سمعه وماتت زوجته وابنته ولهذا نراه يقول مصورا ما آل اليه حاله فى هذه الغربة :

أَخْلَقَ الشَّيْبُ جِدَّتِي وَكَسَانِي
خِلْعَةً منه رَثَّةَ الجِلْبَابِ
وَلَوَى شَعْرَ حَاجِبَيَّ على عَيْـ
ـنَيَّ حتى أطلَّ كَالهُدَّابِ
لا أَرَى الشَّيْءَ حين يَسْنَحُ إِلا
كَخَيَالٍ كَأَنَّنِي فى ضَبَابِ
وَإِذَا ما دُعِيتُ حِرْتُ كَأَنِّي
أَسْمَعُ الصَّوْتَ من وراءِ حِجَابِ
كلَّما رُمْتُ نهضةً أَقْعَدَتْنِي
وَنْيَةٌ لا تُقِلُّهَا أَعْصَابِي
لَمْ تَدَعْ صَوْلَةُ الحوادثِ مِنِّي
غَيْرَ أَشْلاءِ هِمَّةٍ فى ثِيَابِ (١)

وقد عاد البارودى إلى القاهرة بعد هذه الغربة التى نالت منه ، وأسقمه النفى وكان أول ما قاله إثر عودته قصيدته الرائعة التى مطلعها :

---

(١) انظر الأبيات والقصيدة فى : ديوان فقيد السيف والقلم ١/٣١ .

أبابـل مرآى العين أم هذه مصر
فإنى أرى فيها عيوناً هى السحـر

وكانت أوبته إلى مصر عيدا ، وأصبح منزله ندوة الأدبـاء والشعراء ذوى المكانة ، وقد عكف على تنقيح ديوانه وترتيـب مختاراته ، وقضى فى مصر أربع سنوات ذهب أثناءها ما بقى من بصره ، ثم لبى نداء ربه فى الأيام الأخيرة من شهـر ديسمبر سنة ١٩٠٤م عن خمسة وستين عاما ، تاركا لمصـر والعالم العربى هذا الديوان الضخم الذى تولت أرملتـه التى تزوجها بسرنديب طبع الجزأين الأول والثانى منه .

قام الأستاذ محمود الإمام المنصورى بشرحهما والإشراف على طبعهما وقد بدئ فى طبعهما أوائل الحرب العالميـة الأولى ، والجزء الأول من قافية الهمزة إلى آخر قافية الفاء ، والثانى إلى نهاية قافية اللام .

ثم ظهر الديوان فى نشرة ثانية قام بها على الجارم ومحمد شفيق معروف ، وقد عهدت إليهما بذلك : وزارة المعـارف آنذاك ، فأصدرا منه جزأين عام ١٩٤٠م ، ١٩٤٢م حتى آخر قافية الكاف ، ثم قامت دار المعـارف بمصر بطبع الديـوان كاملا عام ١٩٧١م فى أربعة أجزاء ، بتحقيق وضبط وشرح على الجارم ومحمد شفيق معروف . كما ترك البارودى مختارات من الشعر أربعة أجزاء كبيرة اختارها من عيـون الشعـر العباسى لثلاثين شاعرا وقد شرحها البارودى ، وقامت زوجته

بطبعها بعد وفاته تخليدا لذكراه . وقد طبع للبارودى عام ١٩٠٩م قصيدة تحت عنوان "كشف الغمة فى مدح سيد الأمة" ، وهى قصيدة طويلة فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضمنها سيرته من مولده إلى وفاته ، وقد نظمها فى المنفى على وزن نهج البردة للبوصيرى ، وعدد أبياتها (٤٤٧ بيتا) وتقع فى ٤٨ صفحة .

وللبارودى كتاب يسمى "قيد الأوابد" وهو كتاب نثرى التزم فيه أسلوب السجع واهتم بالصناعة البديعية ومحسناتها وجمع فيه بعض الخواطر ، والرسائل التى كتبها لخاصته ، أوالتى نفث فيها مكنون صدره .

والبارودى يعتبر بحق باعث النهضة الشعرية فى العصر الحديث ، لأنه ارتفع به إلى منزلة فحول الشعراء العباسيين وأعاد ديباجته القوية وفصاحة عبارته ، ومتانة قوافيه ، وخلصه من تلك القيود والأغلال التى كان يرسف فيها إبان عصور الضعف ، وجدد فى كثير من أغراضه الشعرية على غير مثال سبقه من معاصريه ، واستحدث نماذج لمن أتى بعده من الشعراء فى أبواب الوصف والشعر السياسى والهجاء الاجتماعى والرثاء للأهل والأصدقاء [1] ، وقد أظهر بهذا الشعر

---

(١) راجع عن البارودى : محمود سامى البارودى لعمر الدسوقى ورائد الشعر الحديث للدكتور شوقى ضيف ، ومقدمة الجزء الأول من ديوان البارودى طبع دار المعارف بمصر ، ومحمود سامى البارودى شاعر النهضة للدكتور / على الحديدى .

الملتزم أن للشاعر رسالة سامية وهى أن يعبر بإخلاص عن خلجات نفسه ، ونوازع نفسه ، فى وضوح وقوة ، ولذلك كان أثره واضحا فيمن جاء بعده من الشعراء الذين احتذوه ، وأضافوا إلى ما كان له من تجديدات واضحة ، أمثال : إسماعيل صبرى ، و شوقى ، وحافظ إبراهيم ، والرصافى ، وعلى الجارم ، وأحمد محرم ، وغيرهم .

الدراسة الفنية لأبيات البارودى:

أولا : معانى الكلمات :

١ - الطِّلاب : الطلب ، ومستقره : مكان وجوده واستقراره ، عارضتنى : اعترضتنى وحالت دون مطلبى ، المقادر : جمع مقدار وهو قدر الله تعالى وقضاؤه وحكمه .

٢ - العريكة : النفس والطبيعة ، محبوك : متقن محكم وهو تحسين أثر الصنعة فى الثوب ونحوه ، التريكة : بيضة الحديد للرأس كالخُوذَة .

٣ - تقوَّل عليه : كذب عليه أى تحدث عنه بما هو كذب ، والعرض موضع المدح والذم من الإنسان ، أو ما يفتخر به من

حب وشرف وخلائق محمودة ، ناصح الحبيب : برئ مـن العيب • وافر : تام لم يدنس أو ينل أحد منه •

٤ ـ مراد الفضل : مجاله ، مغبة الشئ : عاقبته وآخره • شانه :انتقصه وعابه •

٥ ـ العُقاب : طائر من جوارح الطير ، كسيره : مكســـورة ، غادرتها : تركتها •

٦ ـ رمت : أردت وطلبت • صَبَّحَني : جائني صباحا والمـراد سارع إليَّ • القسط : النصيب والجزء • غامر : كثير •

٧ ـ السوأة : العيب والنقيصة • المعاير : المعايب •

٨ ـ القِرى : ما يقرى به الضيف من الطعام والشراب والمـراد وجـوه الانفاق • العشائر : جمع عشيرة وهى القبيلة •

٩ ـ يستجم : يكثر ويجتمع •

١٠ـ عاريا : أى بلا مال • حاسر : مكشوف أى مجود من غمده •

١١ـ المفاقـر : وجوه الفقر وأنواعه وأحواله •

١٢ـ قئول : لسن فصيح • عوازب :غائبة ذاهبة • صئـول : فاتك مقدام شجاع •

١٣ـ الوُجْدُ : الغنى • باسر : كالح الوجه عابس مبتئس •

١٤ـ ذباب السيف : حده • وصم : عيب وعار •

١٥ـ فل : منهزم • الرزية : المصيبة • باد : مقيم فى الباديـة وهى الصحراء • وحاضر : مقيم فى الحاضرة وهى المدينـة والقريـــــة •

١٦ـ شباة : شباة كل شئ حده • الدوائر : النوازل والخطوب

١٧ - الحسام: السيف القاطع ، والكلالة مصدر كل السيف أى لم يقطع لتثلمه .

١٨ - تنزو : تثب . العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة .
الحقود : جمع حقد وهو الضغن والانطواء على العداوة والبغضاء . والسرائر: جمع سريرة وهى السر الذى يكتم .

١٩ - الغمرة : الشدة . غيابة كل شئ : ما سترك منه .

٢٠ - حاطنى : صاننى وحفظنى ورعانى ، والفاعل الضمير المستكن فى الفعل يعود على الله تعالى . ترامت : أخرجت ، من قولهم : ترامت به البلاد أى أخرجته .
أفلاذ القلوب : قطعها وأجزاؤها .

٢١ - الغاية : المراد بها يوم القيامة . تنفت : تتفتت وتتقطع .

٢٢ - بُهْرًا : البهر بضم الباء تتابع النفس من الإعياء ، وبالفتح الكرب والتكليف فوق الطاقة . الفَلْكَة : فلكة كل شئ مستداره ومعظمه . المآزر : جمع مئزر وهو الإزار وهو ما يغطى به المرء نصفه الأسفل .

٢٣ - عاثر : ساقط .

ثانيا : معانى الأبيات :

القارئ لديوان البارودى يجد أن قصائده - إلا ما ندر منها - غفل من المناسبات والتواريخ ، فهو لا يضع للقصيدة عنوانا أو يجعلها تحت موضوع وإنما يجعلها تحت فكرة عامة كأن يفتتح القصيدة بقوله : وقال فى سرنديب ، وقال يصف

أيام الربيع ويذكر مواسم اللهو فى عصر الشباب ، أو يقتصر على "وقال" أو "وقال يروض القول" ومثل القصيدة التى ندرس منها هذه الأبيات التى وضعها تحت عنوان : "وقال بعد وصوله إلى جزيرة سرنديب" وقد رأى ابنته الوسطى فى المنام ، كما أن معظم قصائده تتناول أفكارا متعددة ، وأكثر من موضوع وهذه سمة الفترة التى عاشها البارودى ، ويكفيه أنه أخرج الشعر العربى من عقاله وخلصه مما كان به من ركاكة وسطحية ومعانى تافهة وموضوعات لا أثر للعاطفة فيها .

والأبيات التى ندرسها يمكن أن نقسمها إلى قسمين . القسم الأول نضعه تحت عنوان : فى الفخر . والقسم الثانى تحت عنوان "إلى الشاكين" وهو الذى يبدأ بالبيت القائل :

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ
تَقَاسَمَها فى الأَهلِ بَادٍ وَحاضِرُ

حتى نهاية القصيدة .

١ — والأبيات التى قالها فى الفخر جاءت بعد أبيات قدم فيها البارودى ما تتطلبه السيادة من جهد وركوب للمخاطر والصعاب بصفة عامة أخذ يتكلم عن نفسه وأنه كان من هؤلاء الذين رسمت نفوسهم وأغرموا بطلب المجد والعز فى أى مكان ، ولا ذنب عليه إذا أخفق وناوأه القضاء والقدر . ثم أخذ يبرهن على أن الأقدار هى التى عاكسته فذكر أنها قد تسعد الضعيف فيفوز وتعترض البطل الشجاع ، فلا يظفر على حد قول الشاعر الجاهلى :

قد يخفق الحول النقس

ويظفر الحمق اللئيم

ثم أخذ يمتدح أمانته وفضله ، ويعرض بخيانة غيره ونقصه ، وأنه تولى الوزارة والأمور معوجة وتركها بعد أن قام اعوجاجها وأصلح فاسدها وأزال ضعفها ولو كان ممن ينشد الغنى ومتاع الدنيا بالوسائل الدنيئة والخيانة كما فعل غيره ، لغره المال وكان حظه منه عظيما ، إلا أن نفسه الكريمة الأبية أبت عليه أن يرتكب النقيصة ويتسم بالعار ، فهو مبرأ من العيب وإنما العيب فى الزمان .

ثم أخذ يبرهن على أن المال ليس كل شئ فى هذه الحياة ، وأنه دون الشرف والكرامة ، وما فائدة المال إذا لم ينفق على الأهل والضيفان والمنافع العامة حتى يحمد الناس صاحبه . فكم من غنى وافر المال لا مجد له ، وكم من ماجد يتبوأ المكانة المرموقة وهو فقير ، وذلك لأن أسباب السيادة ليست بالغنى ، وإلا لتقدم التاجر صاحب المال على السيد الشريف صاحب القيم والفضائل ، وهذا ما لم ولن يحدث أبدا ، ولهذا فلا عجب حين يتبوأ الشاعر مراتب الشرف والسيادة وهو فقير ، وأى عجب فى ذلك ؟ ألا ترى السيف لا يقطع إلا إذا جُرِّد من غمده ، ولا ينتصر إلا إذا كان عاريا

واستمر البارودى فى الفخر بصفاته ومزاياه فقال : " ان النعيم ورغد العيش لا يصرفه عن إدراك المعالى والوصول إليها

مع أن شأن النعيم أن يجعل الإنسان مترفا ويدفع به إلى الحرص على الحياة ، فيقعد عن الكفاح ، ولكنه ليس ممن فسدهم النعيم ، كما أن الفقر لا يغير نفسه وخلقه ، ولا يضعف همته ، فنفسه متوثبة فى حالتى البؤس والنعيم ، والفقر والغنى ، تجدها أبدا متوثبة طموحة سباقة إلى الغايات الحميدة .

وينتقل إلى التمدح بفصاحته وقدرته على حل المشكلات إذا ما اشتدت الخطوب واشتبهت الأمور ، ثم يفتخر بشجاعته وشدة بأسه إذا حمى الوطيس واستعرت نار الحرب وطاشت أحلام الرجال ، وفغرت المنايا أفواهها .

ونجده يزيد فى المعنى الذى ذكره فى قوله : " أنا المرءُ لا يُثنيه عن دَرَك العُلا نعيم ... " . وقوله : " انه لا ينخدع اذا أدناه الغنى من متع الحياة ولذاتها ، وكذلك لا يبتئس اذا أقصاه الفقر عنها ، فهو قد وصل إلى حال من القناعة والرضا بحيث لا يرهبه الغنى ولا يحزنه الفقر ، ومع ذلك فالفقر لا يضر إذا كان العرض كريما مصونًا والأخلاق حميدة سامية . والمال لا ينفع إذا فقد الشرف وضاع العرض ، ثم ضرب مثلا على حاله وهو أنه قوى النفس على الرغم من قلة ماله ، كالسيف إذا لم يكن ماضى الحد كانت حليته لدى الحرب وصمة وعارا .

٢ ـ أما الأبيات التى وجهها إلى الشامتين فإنه يقول

فيها للشامتين فيه وفي محنته؛ إذا كنت قد هُزمت وحلت بي المصائب فإن الرزية كانت عامة ، والكارثة شاملة أصابت في مصر البدو والحضر على السواء ولم تكن لي وحدي .

وعلى كلٍّ فكم من بطل قبلي صرعه الزمان ، وكسر حدة قوته وكم من عظيم شريف وسيد في قدوة نزلت به النوائب والخطوب ، وهل ثمة سيف قاطع لم يتثلم وجواد كريم لم يعثر عثرة وسوف يظهر الحق يوما ما لمن ينظر إليه ويتبينه ، وسوف تنكشف الأسرار والقلوب بما فيها من قبائح الحقد والضغينة ،أيها الشامتون بي لا تفرحوا فليس ما أنا فيه إلا شدة سوف تنجلي عن قريب وظلمة ستنكشف سريعا بعون الله الذي ينصر من يشاء .

وقد نصرني الله وأنا في ظلمة الحبس والسجن ،وحاطني بعنايته وكلأني برعايته ، بعد أن بلغت المحنة أشدها والخطب غايته ، حتى تمزقت القلوب قطعا ، وكادت تصل إلى الحناجر من شدة الألم وما حل بها .

مهلا أيها المخدوعون بالدنيا ،لا تشمتوا بي ولا تغرنكم هذه الحياة ، فإننا جميعا نسير إلى غاية واحدة هي الموت والحساب ، وأهوال الآخرة التي تصغر إزاءها كل أهوال الحياة الدنيا ، حتى لتتفتت منها المرائر وتتابع الأنفاس إعياء ونصبا ، ويتعثر كل امرئ في ثيابه حيرة ودهشة وخوفا .

فى ذلك اليوم يرتفع للحق منار ، ويتضح للعيان ، ويسقط الزور وتسقط الأقنعة . صبرا أيها الشامتون فعما قليل ينتهى كل شئ وما أول إلا وله آخر ، وكل محنة ستنجلى وتزول .

التحليل الفنى للأبيات :

أ ـ فى القسم الأول من هذه الأبيات نجد البارودى قد افتخر بطموحه ونقاء عرضه وعفته وحنكته السياسية وحسن تدبيره لأمور الدولة وزهده فى زخارف الدنيا ، كما افتخر بإباء نفسه وأنه حاز ما حاز من المكارم على الرغم من فقره لأن المال ليس كل شئ ، وإنما القوة فى النفس المتوثبة والهمة العالية .

ب ـ وفى هذه الأبيات نجد حرص البارودى على طرح الدعوى ثم تأييدها ببيت من الحكمة التى تطمئن إليها النفس وتسلم بها ، أو يأتى بتذييل كالحجة والبرهان عليها ، فقد أرجع إخفاقه إلى المقادير والزمان ، وهو لا يعاب بذلك فلله سبحانه حكمته وتدبيره ، وما أحسن التفاته إلى الموازنة بين الحرص على المال والحرص على الشرف والسيادة ، وأنه لا فائدة فى المال إذا لم يستخدم فى الأمور العامة حتى يحمد الناس صاحبه .

ولا نستطيع أن نقول إن البارودى كان مبالغا فى فخره هذا بل إن فخره أتى طبيعيا يتلاءم مع ما وصل إليه من مناصب ومكانة فى مجتمعه ، ومع كريم حسبه وعراقة أصله .

جـ - وقد لجأ الشاعر إلى كثير من التصوير الفنى ، فشبه الوزارة بعقاب الملك التى ملكها وهى كسيرة الجناح ، وغادرها وهى سليمة طائرة ، كما كنى عن القوة والشجاعة وكمال الأهبة والاستعداد بقوله " محبوك التريكة " ، وقد كنى بعزوب الأحلام عن اشتداد الخطب وتعقد الأمور كما كنى بانفغار أفواه المنايا عن اشتداد الحرب وتوقد لظاها ، كما شبه نفسه فى البيت الأخير من هذه المجموعة بالسيف يشهر الحرب عاريا ولا ينتصر إلا إذا كان كذلك.

د - وكانت موسيقاه قوية مجلجلة تتناسب مع الفخر والاعتزاز بنفسه ، ففى البيت الأول : عَلَيَّ طِلَابُ العِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ .. نجد حرف العين يتردد أكثر من مرة ، تملأ النفس بالتعالى والتسامى وتطن فى أذن الآخرين ، كما نجد المحسنات البديعية التى تضفى على الكلام عذوبة وإشراقا مثل الجناس الناقص ، بين محلول ومحبوك ، والطباق بين محلول العريكة ومحبوك التريكة ، وخائب وظافر ، وبين كسيرة وطائر ، وبين غائب وحاضر ، ومع كثرة هذه المحسنات فإننا نجدها طبيعية غير متكلفة استدعتها المعانى التى يتحدث عنها ، وكان الشاعر موفقا فيها حيث أحسن اختيار ألفاظها والملاءمة بينها فى الجرس والوقع الموسيقى .

هـ - أما أبيات القسم الثانى : وهى التى وجهها للشامتين فقد نفث فيها البارودى نفثة حارة حين توجه إلى هؤلاء الشامتين بخطابه وبرهن لهم على أنه ليس بدعا بين

الأبطال ولا أعجوبة فى الأشراف ، فالأبطال من قبل قد جار عليهم الزمان ، كما جار عليه ، فلكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة ، ثم قال لهم : إن الحق معى ولم أكن مخطئا حتى أعاقب بما عوقبت به ، وأكد لهم أن الأيام كفيلة بأن تكشف عما فى قلوبهم من أحقاد وضغائن ، وما هى إلا شدة ستنجلى وأن الله الذى رعاه فى سجنه سيرعاه فى محنته هذه ونفيه الذى منى به ، فيا بنى الدنيا إن الحياة لا تدوم والكل إلى دار القرار ، وهناك أهوال وشدائد تفوق كل ما نلقاه فى هذه الحياة ، وإذا لم يظهر الحق فى هذه الدنيا ، فسيظهر فى الحياة الأبدية ، وعند ذلك فقط يسقط الزور ويندحر الباطل .

و — وقد لجأ البارودى فى بيان هذه المعانى إلى التصوير الفنى حيث شبه نفسه بالحسام القاطع وبالجواد الكريم ، وكنى عن الكبوة والسقوط بقوله " بخيانة الحوافر " كما كنى عن شدّة الخطب بقوله : " ترامت بأفلاذ القلوب الخناجر " وعن أهوال يوم القيامة وشدائده بانفثات المرائر وبيته الذى يقول فيه : " تطول بها الأنفاس جُهْراً .... " .

ز — وأما ألفاظه وموسيقاه ، فهى مختارة منتقاة وقد وشّاها بالبديع الذى أضفى عليهما قوة وعذوبة : ومن ذلك الطباق بين : "باد وحاضر" ، وبين : " يعلو الحق ، ويسفل كعب الزور " ، وقد جاءت هذه المحسنات طبيعية غير متكلفة .

رابعا : نظرة عامة :

١ ـ الأبيات التى اخترناها للدراسة من قصيدة طويلة بلغت ستة وستين بيتا ، وهى كمعظم قصائده تمثل صاحبها أتم تمثيل تعكس شخصيته أمام قارئها وتصوره تصويرا دقيقا يسمو بنفسه وكبريائه وصفته العسكرية المقدامة ، وطموحاته التى لا تقف عند حد وإبائه وعزة نفسه وتجلده وصموده أمام المحن والأحداث .

فالقصيدة نموذج من نماذج العاطفة الدافقة التى يغمرها الشعور ، فيفيض عنها الشعر صادقا لا تكلف فيه ولا صنعة .

والبارودى متأثر فى أسلوبه بطابع القصيدة العربية القديم وقد أخذ ممن سبقه من الشعراء . فبيته الأول :

عَلَىَّ طِلابُ العزِّ من مستقرِّه
ولا ذنبَ لى إنْ عارَضَتْنى المَقادِرُ

مأخوذ من أبى فراس الحمدانى (ت ٣٥٧ هـ) حيث يقول :

علىَّ طلابُ العزِّ من مستقرِّه
ولا ذنبَ لى إنْ حاربَتْنى المَطالِبُ

فقد أخذ بيت أبى فراس ولم يغير فيه إلا الجملة الأخيرة .

والقصيدة التى منها الأبيات المختارة لهذه الدراسة تذكرنا بأبى فراس فى محنة أسره ولوعة شكواه وكان تأثر

البارودى بهذا الشاعر فى هذه القصيدة واضحا ، ولا غرابة فى ذلك ، فكل منهما فارس شجاع تعرض للأسر وطمن فى طموحاته ، وآماله . وهكذا كان البارودى فى قصائده روحا متوثبة أبية وإرادة صلبة وحماسا يشيع فى قصائده .

٢ – ومعانى البارودى على الرغم من أسرها وجزالة ألفاظها فهى معانى متداولة مطروقة وإن صاغها صياغة جديدة فى أسلوب جزل واختبار للألفاظ مما يدل على تمكنه من المعجم العربى .

فالقصيدة كلاسيكية فى نسجها عباسية فى ديباجتها.

وكان الشاعر بارعا فى طرح قضاياه والاستدلال على صحة رأيه وتدعيمها بالحكم البارعة ، التى تطمئن إليها النفس وتسكن .

٣ – وأسلوبه فى هذه الأبيات هو أسلوبه فى قصائده الذى يحرص على جزالة التراكيب والمتانة فى السبك وقوة الأسر ، وهو الأسلوب الذى عرف به الفحول من شعراء العصر العباسى ، الذى نهج البارودى نهجهم ، وسار على طريقتهم . فالبارودى هو باعث النهضة الشعرية فى العصر الحديث ، لأنه ارتفع بالشعر إلى منزلة فحول الشعراء العباسيين ، وأعاد له فصاحة عبارته وقوة ديباجته ومتانة قوافيه ، وأكد أن للشاعر رسالة سامية هى أن يعبر بإخلاص عن خلجات نفسه وتجاربه فى وضوح .

وقد ترسم البارودى مذهب العرب الأقدمين الشعرى نجاء شعره كما وصفه ليس فيه شىء من تعقيد الفكرة ولا من القضايا المنطقية ، والمعانى المتوغلة فى العمق والآراء الفلسفية ، ولذلك كان شعره يتميز بوضوح معانيه وحسن تأليف عباراته ، والتعبير عن خلجات نفسه وتجاربه فى وضوح ، وقوة . فالشعر عنده ومضات تلمع فى سماء الخيال ، وقد تألقت فعلا هذه الومضات فى شعره دون أن يلجأ إلى صياغتها فى قصة محبوكة أو مسرحية من المسرحيات .

٤ - كما كان البارودى يتخير الألفاظ المناسبة فيرق ويلطف فى مقام الرقة واللطف ، كأن يتغزل أو يعتب أو يصف جميلا أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويشتد أمره ويجلجل لفظه حين ينشد الشعر فى الحماسة أو فى الفخر أو حين يصف الحرب والبحر الهائج والريح العاصف .

٥ - والأبيات التى درسناها من قصيدة طويلة فى الفخر وهو أحد أغراض شعره الرئيسة حيث قال الشعر فى كثير من الأغراض القديمة ، التى طرقها الشعراء بقلة مثل الرثاء والمدح والهجاء ، والفخر والوصف ، وكان الفخر من أبرز هذه الأغراض فقد افتخر بنفسه فى كثير من قصائده على عادة الشعراء الفرسان ، وصدر فيه وفى جميع أغراضه عن معاناة وجدانية صادقة ، فلم يتخذ من شعره بضاعة يبيعها لذوى النفوذ والسلطان ، ولم يكن قط لسانا لحاكم أو داعية لأمير كما كان يفعل غيره من الشعراء . ومع ذلك فإننا نجد له

بعض المبالغات المسرفة فى فخره ولكنها مع ذلك مقبولة من مثل قوله :

أَنا المَرْءُ لا يُثْنِيهِ عَنْ طَلَبِ العُلا
نعيمٌ ولا تَعْدُو عليه المَفاقِرُ

قَئُولٌ وأحلامُ الرِّجَالِ عَوازِبٌ
صَئُولٌ وأفواهُ المنايا فَواغِرُ

ولم يكن البارودى فى شعره صدى للشعراء القدماء بل جدد فى الأغراض القديمة وذلك حين استقلت شخصيته عنهم ، وقد ظهرت شخصيته ممثلة لعصرها وحياة صاحبها ، فقد ذاق مر الحياة وحلوها ، وصور حياته النفسية فى كل أطوارها فى صدق وإخلاص .

ويتضح تجديده فى التعبير عن شعوره ومشاهداته ومن هذه الموضوعات الوصف ، والشعر السياسى ، والهجاء الاجتماعى والشخصى ، كما جدد فى الغزل وجعل رثاءه لأصدقائه وذوى قرباه مما يعكس صدق عاطفته ومعاناته الوجدانية الحقة ، مما يُعَدّ اتجاها جديدا فى فنون الوصف والشعر السياسى والهجاء الاجتماعى والرثاء .

مما يضع البارودى على رأس مدرسة المجددين ويجعله بحق زعيم مدرسة الإحياء والتجديد فى الشعر العربى الحديث .

* * *

النص الثانى

نكبة دمشق : لأحمد شوقـــى

مناسبة النص :

وعد الحلفاء العرب إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨م) بالاستقلال إن هم وقفوا بجانبهم ، وكانت هذه دعوة كاذبة شأن كل مستعمر ، فعندما انتهت الحرب أعلنت سوريا استقلالها عام (١٩٢٠م) إلا أن فرنسا لم تمهلها وسارعت بوضعها تحت الانتداب الفرنسى ، وظل الشعب السورى يقاوم الاستعمار ويطالب بتنفيذ وعوده ، لكن لا سميع ولا مجيب ، وفى يوليو سنة ١٩٢٥م . تجددت الثورة وأباد الدروز كتيبة فرنسية وتفوق الثوار على أعدائهم مدة من الزمن إلا أن الفرنسيين ما لبثوا أن قاموا بالانتقام لأنفسهم أبشع انتقام فقد ضربوا دمشق بمدافعهم أربعا وعشرين ساعة فى أكتوبر من نفس العام فهدموا مبانيها وخربوا معالمها التاريخية وقتلوا الآلاف من سكان دمشق .

فقد بلغ عدد القتلى من السوريين نحو عشرة آلاف فروعت النكبة أبناء الوطن العربى كله ، وسارعوا إلى إغاثة المنكوبين والوقوف بجانبهم وأقيم فى مصر احتفال كبير فى مسرح حديقة الأزبكية فى يناير سنة ١٩٢٦م ألقيت فيه قصيدة شوقى الـتى يعبر فيها عن الوجدان العربـى كله ويشارك الشعب

السورى أساه وآلامه ويؤدى بهذه القصيدة ومثيلاتها من قصائده الغراء رسالة الشعر السامية . ويبدأ شوقى قصيدته بقوله:

سَلامٌ مِنْ صَبَا "بَرَدَى" أَرَقُّ
ومدعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دِمَشْقُ

وهى قصيدة طويلة بلغت خمسة وخمسون بيتا ، وقد اخترنا الأبيات التالية لهذه الدراسة (١) . يقول شوقى :

(١)

سَلِى مَنْ رَاعَ غِيدَكِ بَعْدَ وَهْنٍ
أَبَيْنَ فؤادِهِ والصَّخرِ فَرْقُ ؟ (١)

وَلِلْمُسْتَعْمِرِينَ وَإِنْ أَلانُوا
قلوبٌ كالحِجَارةِ لا تَرِقُّ (٢)

رَمَاكِ بِطَيْشِهِ ورمى فرنسا
أَخو حَرْبٍ به صَلَفٌ وحُمْقُ (٣)

إِذا ما جَاءَهُ طُلَّابُ حَقٍّ
يقول عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا (٤)

دَمُ الثّوارِ تعرفُه فرنسا
وتعلم أنّه نورٌ وحَقُّ

جَرى فى أرضها ، فيه حَيَاةٌ
كَمُنْهَلِّ السماءِ وفيه رِزقُ (٥)

---

(١) راجع القصيدة فى الشوقيات ٨٨/٢ وما بعدها .

بلادٌ مات فتيتها لتحيا
وزالوا دون قومهمُ ليبقوا

وحرّرت الشعوب على قناها
فكيف على قناها تُسترقُّ (٦)

(٢)

بني سوريّةَ اطّرحوا الأماني
وألقوا عنكمُ الأحلامَ ألقوا (٧)

فمِنْ خدعِ السياسةِ أنْ تُغرّوا
بألقابِ الإمارةِ وهي رِقُّ (٨)

وكم صيدٍ بدا لكَ من ذليلٍ
كما مالتْ من المصلوبِ عُنْقُ (٩)

فتوقُ الملكِ تحدُثُ ثمّ تمضي
ولا يمضي لمختلفينَ فتْقُ (١٠)

نصحْتُ ونحن مختلفون داراً
ولكنْ كلُّنا في الهمّ شرْقُ

ويجمعنا إذا اختلفتْ بلادٌ
بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطْقُ

(٣)

وقفْتُمْ بينَ موتٍ أو حياةٍ
فإنْ رُمْتُمْ نعيمَ الدّهرِ فاشقوا

وللأوطانِ في دمِ كلِّ حُرٍّ
يدٌ سلفتْ ودَيْنٌ مُستحقُّ (١١)

وَمَنْ يُسْقَى وَيَشْرَبُ بالمنايا
إذا الأحرارُ لم يُسْقَوْا وَيَسْقُوا (١٢)
وَلا يَبْنِي الممالكَ كالضَّحايا
ولا يُدْنِي الحقوقَ ولا يحقُّ (١٣)
فَفِي القَتْلَى لِأَجْيالٍ حَياةٌ
وفي الأسرى فِدًى لَهُمُو وعِتْقُ
وللحريةِ الحمراءِ بابٌ
بكلِّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ (١٤)

أولا : التعريف بالشاعر :

اختلف الباحثون فى تاريخ ميلاده ، فمنهم من ذكر أنه سنة ١٨٦٨م ومنهم من قال إنه سنة ١٨٦٩م أو سنة ١٨٧١م ، وطبقا لشهادة الليسانس التى حصل عليها من كلية الحقوق بباريس والمحفوظة لدى ابنه حسين شوقى فإن تاريخ ميلاده منها هو ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٧٠م ، وأبوه على شوقى من الأكراد الأثرياء ، فقد ورث عن أبيه ثروة طائلة لكنه بددها فأرادت جدته لأمه "تمراز" اليونانية الأصل والوصيفة فى قصر الخديو أن تخفف أعباء زوج ابنها فقامت بتربية ابنه أحمد شوقى وتولت رعايته ، وبذلك دخل أحمد شوقى القصر وهو طفل صغير وعاش فيه مع جدته ، ثم تعلم بالمدارس الابتدائية والثانوية بالقاهرة ، ثم دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٥م ليدرس القانون وتخرج فيها من قسم الترجمة سنة ١٨٨٧م ، فعين موظفا بالقصر الخديوى ، لكنه سرعان ما

أرسل فى بعثة إلى فرنسا لدراسة القانون فمكث أربع سنوات حصل فيها على شهادته ، وخلال هذه الفترة تهيأت له الفرصة ، فطاف بكثير من نواحى فرنسا ، وزار إنجلترا واطلع على ثقافات هذه الأمم ، وخاصة الأدبية والمسرحية ، وأقبل على قراءة شعر فيكتور هيجو ، وغيره من شعراء فرنسا ، ثم ترجم قصيدة " البحيرة " للامرتين شعرا ، وحين عاد شوقى إلى مصر عمل موظفا كبيرا فى قصر خديوى مصر حيث عين رئيسا للقسم الافرنجى بالقصر ، وظل بهذه الوظيفة عشرين عاما ، وأصبح شوقى بعد ذلك شاعر القصر ومن أفراد حاشيته .

وحين أعلنت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م وخلع الإنجليز الخديو عباس حلمى أثناء وجوده بتركيا ، وكان شوقى من أفراد حاشيته نفاه الإنجليز إلى أسبانيا حيث استقر فى مدينة برشلونة ، وظل بها أربع سنوات وكانت فرصته لأن يفرغ شوقى لنفسه ولشعره وليستلهم أمجاد المسلمين فى بلاد الأندلس ، وحين رجع إلى مصر بعد النفى تحرر من الوظيفة وانضم إلى أبناء الشعب فى ثورتهم ضد هذا الظلم والفساد ، وأصبح شاعرا وطنيا يحس بآلام الشعب ومشاركة آماله ، فخلص لفنه ولوطنه ثم للوطن العربى الكبير .

وقد قال الشعر فى جميع الأغراض عدا الهجاء ، فقد كان عف اللسان ، كما أنه ابتكر الشعر المسرحى التمثيلى بصورته الواضحة فى مسرحياته العديدة ، أمثال مصرع كليوباترة ومجنون

ليلى ، كما عكف على التاريخ المصرى والإسلامى القديم فأبرز أعظم وأجمل ما فيه من قصائد وملاحم رائعة كقصيدته المشهورة : " كبار الحوادث فى وادى النيل " التى ألقاها بمؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٥م ، كما صور بشعره الأحداث السياسية والقومية فى مصر والبلاد العربية ، ومن الأغراض الشعرية التى أبدع فيها الشعر الاجتماعى ، ووصف الحضارة الجديدة ، كما نظم كثيرا من الشعر التعليمى والدينى ، والقصة على لسان الحيوان ، فكان بذلك من أكثر شعراء العربية إنتاجا وتنوعا فى شعره وتجديدا فى الأغراض ؛ ارتقى بالشعر العربى بعد البارودى درجات وجعل منزلة مصر من الشعر لا تدانى ، ولهذا فقد بويع بإمارة الشعر فى حفل تكريم ، وأعلن حافظ هذه المبالغة قائلا :

أَمِيرَ القَوافِي قَدْ أَتَيْتُ مُبايِعـــًا
وَهذِي وُفُودُ الشَّرْقِ قَدْ بايَعَتْ مَعِي

وظل يعزف على قيثارة الشعر حتى لبى نداء ربه سنة ١٩٣٢ ومن آثاره : الشوقيات فى أربعة أجزاء ومسرحيات شعرية منها : كليوباترة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، والست هدى ، كما أن له مطولة باسم : "دول العرب وعظماء الاسلام" ، ومؤلفات روائية نثرية منها : أسواق الذهب ، وأميرة الأندلس ، راجع عنه : " شوقى " لأنطون الجميل ، وأبى شوقى لحسين شوقى ، وأحمد شوقى للدكتور ماهر حسن (أعلام العرب ٨٧) وشوقى شاعر العصر الحديث للدكتور : شوقى ضيف .

ثانيا : معانى المفردات :

١ ـ راع : أفزع ، الغِيد : جمع غيداء وهى الشابة الناعمة .
وَهْنٌ : منتصف الليل أو بعده بقليل .
٢ ـ أَلانُوا : أظهروا اللّين .
٣ ـ طيشه : حمقه وخفة عقله ، صلف : تكبر وغرور وغطرسة ،
ويقصد قائد الجيش الفرنسى وهو الجنرال (سراى) .
٤ ـ شقوا : عصوا ، أى شقوا عصا الطاعة .
٥ ـ منهل السماء : المطر الغزير .
٦ ـ قناها : القنا : الرماح جمع قناة ، تسترق : تستعبد .
٧ ـ اطّرحوا الأمانى : اتركوا الآمال الخادعة . الأحلام :
جمع حلم بضم الحاء وهو ما يراه النائم .
٨ ـ تغروا : تخدعوا ، رق : ذل واستعباد .
٩ ـ صَيِدَ : بفتح الصاد وكسر الياء : إمالة العنق كبرا
وتعاظما .
١٠ ـ فتوق الملك : مظاهر الخلل والضعف .
١١ ـ يد : فضل ، سلفت : سبقت ، دين مستحق : واجب
الأداء .
١٢ ـ يُسْقَوْا : يذيقهم غيرهم الموت ، ويَسْقُوا : يذيقون أعداءهم
الموت .
١٣ ـ يُدْنِى الحقوق : يجعلها قريبة المنال .
١٤ ـ مضرَّجة : ملطخة بالدم .

ثالثا : الأفكار والمعاني :

الأبيات التى اخترناها لهذه الدراسة اشتملت على ثلاثة أفكار رئيسة هى :

١ ـ تنديد بالمستعمر الذى تنكر لمبادئ الثورة الفرنسية :

فبعد أن افتتح الشاعر قصيدته بتحية دمشق وبين مكانتها فى قلبه وتحدث عن ذكرياته فيها انتقل إلى الحديث عن الأنباء المروعة ، عن نكبة دمشق ، وأخذ بعد ذلك يبكى تاريخها وحضارتها وفظائع المأساة التى أصابتها ، ثم أخذ ينحى باللائمة على المعتدين ويندد بوحشيتهم فيقول : اسألى يا دمشق هذا القائد الذى أفزع نساءك الناعمات فى جوف الليل هل هناك فرق بين قلبه والصخر فى قسوته وصلابته ؟ ولا عجب فى ذلك فالمستعمرون جميعا قلوبهم قاسية كالحجارة وإن غلفوها لدهائهم باللين والرقة والدليل على وحشيتهم وقسوتهم ما كان من قائدهم الغادر الذى أمر بتدميرك يا دمشق فرماك بمدافعه ، ومدمراته ولكن كيده ارتد إلى نحره لأنه أظهر بلده عدوا للحرية وحربا على الأحرار بعد أن كانوا يتطاولون ويتصايحون بأنهم حماة الحرية ، إن هذا القائد داعية حرب أحمق يدعى أن من يطالبون بحقهم فى الحرية وحق بلادهم فى الاستقلال عصابة خرجت على النظام وشقت عصا الطاعة والدليل الواضح على تناقض مسلك هؤلاء الفرنسيين فى عدوانهم على دمشق ، وبين المبادئ القويمة التى أعلنتها الثورة الفرنسية وهى حق الشعوب فى الحرية والإخاء والمساواة

أن فرنسا تعرف قيمة دم الثوار الغالى ، وتدرك أنه الشعلة التى تضئ طريق الحرية وتعيد الحق إلى أصحابه وقد جرى هذا الدم فوق ثراها فأحياها ومنحها الحرية والرخاء كما يحيى المطر الهاطل من السماء والأرض ويهب لها الخصب والخير ، ولقد ضحى شبابها بحياتهم لتحيا بلادهم عزيزة حرة ، وقد عاونت فرنسا الشعوب على نيل حريتها فكيف تتنكر لمبادئها فى دمشق وتسلب الشعب السورى حريته ؟! ».

٢ - نصح وتحذير:

وفى المجموعة الثانية من الأبيات يتجه شوقى إلى أبناء سورية ناصحا لهم ومحذرا إياهم من خدع السياسة وأساليب الاستعمار فيقول: يا أبناء سورية اتركوا الأمانى الكاذبة وراءكم ظهريا ، ولا تتعلقوا بالأوهام الخادعة ، فإن المستعمر يريد السيطرة عليكم بألقاب الإمارة ومناصب الزعامة ، ليجعلكم تابعين له ويستند لكم بدهائه ، وما قيمة هذه الألقاب الزائفة التى تخدع صاحبها فيميل عنقه كبرا وهو فى واقع أمره ذليل مهين ، إن مثله كمثل المصلوب مالت عنقه لأنه فقد الحياة وكذلك شأن كل من تخدعه الألقاب والمناصب ، وقد تقع الحروب بين الممالك فتعالج آثارها ، وينتهى أمرها . أما الخلاف الذى يقع بين طوائف الشعب الواحد فإن داءه خطير لا يعالج ، ولا تعجبوا إن نصحت لكم ونحن مختلفون دارا ، فإن بيننا روابط لا تنفصم ، رابطة الهموم والآلام التى

أصابت الشرق والشرقيين بسبب الاستعمار والمستعمرين ، ورابطة اللغة والفكر التي توحد العواطف والآمال .

٣ ـ استنهاض للعزائم :

ثم يتجه الشاعر في نهاية هذه القصيدة إلى استنهاض الهمم للحفاظ على الوطن وحريته فيقول لأبناء سورية وكل عربي حر إنكم اليوم في موقف دقيق بين الحياة والموت ، فان أردتم الحرية وعزة الوطن فابذلوا الدم رخيصا ، وادفعوا الثمن غاليا فللوطن على أبنائه فضل قديم لا ينسى ، ودين واجب الأداء ، وليس هناك من هم أحق بالجهاد من الأحرار الذين يضحون بأرواحهم رخيصة ويخوضون غمار المعارك دفاعا عن الحرية حتى ينالوا من عدوهم فيقتلونه ، أو ينال هو منهم فيسعدون بنعيم الاستشهاد ، فالدول لا يرتفع قدرها ، ولا يعلو شأنها إلا بالكفاح والتضحية ، ولا تنال الحقوق الا بالجهاد وبذل الأرواح ، ففي دماء الشهداء حياة الأوطان ، وسعادة الأجيال وفي أسر المجاهدين والمناضلين حرية للأبناء وخلاص لهم من الذل والعار وإن الحرية الحقيقية حصن لا يفتح إلا بأيدٍ يدميها طول النضال والتضحية ، أيد تدمن القرع ولا تمل طلب الحرية التي تنشدها حتى تظفر بها .

+++++++++

رابعا : الدراسة الفنية :

١ - التعبير :

فى المجموعة الأولى من الأبيات نجد أن عاطفة الشاعر يلفها الأسى والألم ، لما حل بأبناء سورية من نكبة قاسية وضربة مؤلمة ولهذا اختار الشاعر من الكلمات والعبارات ما يلائم التنديد واللوم مثل : " راع " التى توحى بشدة الفزع والهول ، و " غيد " التى تبين أن فتيات سورية من الرقة والضعف بحيث يجب إكرامهن لااستعمال القسوة معهن ، كما تبين نذالة المستعمرين وجبنهم ووحشيتهم حيث اعتدوا على النساء وأساءوا إليهن ، وجاء التعبير بقوله " بَغَتْ وَهْنٍ " ليبين شدة غدر العدو وقبح فعلته ، فالمستعمر لم يراع حرمة الفتيات وسكنهن فى هدأة الليل ولم يرحم شيخا أو يعطف على صغير وجاءت المفارقة فى البيت الثانى بين ما يظهره من علانية وما يضمره من غدر وقسوة ، تأكيدا لمعنى البيت الأول ، كما جاء البيت الثالث للتفسير والتدليل على قسوته وتحجر قلبه ، " فرماك " توحى بالقصد والتعمد ، و " أخو حرب " توضح أن الحرب صفة ملازمة له لا تفارقه ، كما وصف أخا الحرب بصفات ثلاث هى : الطيش ، والصلف ، والحمق . وكرر الفعل " رمى " ليبين أن سهمه ارتد إلى نحره ، فقد أساء إلى فرنسا كما أساء إلى دمشق ، فى نفس الوقت .

ومن عجب أمر المستعمر أنه يسمى الأشياء بأضدادها فطلاب الحرية " عصابة خرجوا وشقوا " .

ومن وسائل التنديد التى لجأ شوقى إليها تمجيد الثورة الفرنسية التى نادت بحقوق الإنسان من جانب ، وتوجيه اللوم والتقريع للفرنسيين الذين تنكروا لمبادئ الثورة بقتلتهم الشهداء من جانب آخر ، وجاءت كلمتا " تعرفه ، وتعلم " للدلالة على أن فرنسا عرفت دم الثوار فى الماضى لأنها أراقته فى الثورة الفرنسية ، و " تعلم " لأنها ذاقت ثمار هذا البذل وتلك التضحية فى تحويل الحياة بها الى النور بعد الظلمة والحرية بعد العبودية ، فالعلم ثمرة المعرفة ونتيجتها ، كما أنه جعل فى الدماء حياة لأنها تهب الحرية ، والحرية هى الحياة ، كما جعلها مصدر رزق لأن الانسان فى ظل الحرية ينعم بخيرات وطنه ، وفى ظل الاستعمار تضيع ثروة الوطن ويتبدد خيرها .

والبيت السابع : بِلَادٌ مَاتَ فِتْيَتُهَا لِتَحْيَا .... يفيد الشطر الأول منه حياة البلاد عزيزة حرة بعد موت الفتيان دفاعا عنها ، والشطر الثانى منه يفيد أن الثوار قد ضحوا بدمائهم ليبقى أبناؤهم من بعدهم أحرارا أعزاء ، وقد حذف الفاعل فى قوله : " حررت " ، " تسترق " للعلم به .

ب ـ وفى المجموعة الثانية من الأبيات . يتحول الشاعر من مخاطبة دمشق المنكوبة إلى مخاطبة أبناء سورية جميعا ، فيوجه إليهم نصحه ، فالنكبة وإن حلت بدمشق وأهلها فإن أبناء سورية جميعا قد أحسوا بها ومن واجبهم أن يشاركوا فى تحمل أعبائها ولهذا ينصحهم بألا تغرهم الأمانى ،

وألا ينخدع زعماؤهم بالأوهام وألاعيب المستعمر الخادعـــة فلا يغتر بالألقاب والأسماء وما يخلعه عليهم من ألفاظ براقة وجاءت كلماته ملائمة لهذه الأفكار ، فقوله " اطرحوا " توحى بخطورة الأمانى ، ولذلك يجب تجنبها ، كما كرر قولـــــه : " ألقوا " ليؤكد النصيحة ويبين شدة الحرص على تنفيذ هـا ، وأضاف السياسة إلى " خدع " فى البيت العاشر ليبين أن الخداع طبيعة من طبائع المستعمر ، وعبر بقوله " تغـــروا " لينبه إلى حقيقة الاستعمار وأحابيله ، كما قرن الإمارة بالسرق لينبه إلى خطورة هذه الألقاب ، وما تجره من عواقب وخيمة .

وعبر بكلمة " كم " فى البيت الحادى عشر الخبرية للدلالة على الكثرة فى مجال الخداع والإغراء ، وصلة هذا البيـــت بسابقه صلة قوية ، فقد جاء كالدليل على صدق ما ذكـــره سابقا ، فألقاب الإمارة مظهر خارجى يوحى بالعظمة ولكنها فى الواقع ذل كهذا الذى يظهر التعالى وهو دنئ حقـير ، وكهذا المصلوب الذى يراه الرائى فيظن إمالة عنقه تعاليـــا وهو فى واقع الأمر ميت لا حياة فيه ، كما عبر بالفعل المضارع " تحدث " فى البيت الثانى عشر والفعل " تمض " ليفيـــد تجدد مظاهر الضعف والخلل فى الحكم وتكرارها ، ونكـــر " فتق " ليفيد التعميم والشمول مهما يكن قدر هذا الفتق ، وجملة : " مختلفون دارا " فى البيت الثالث عشر جملة حالية تمهد لما يسوقه من وحدة الآلام ووحدة اللغة وتوحى بقـدرة هذه الروابط .

جـ — وفى المقطع الثالث نجد الشاعر يستنهض همم السوريين والعرب جميعا ويوقظ عزائمهم فيبين أن الموقف خطير ، " وقفتم بين موت أو حياة " كما يبين لهم فضل الوطن عليهم ، مما يستوجب الدفاع عنه والذود عن حياضه فأياديه كثيرة وفضله لا حدود له ، وقد اختار كلمة " سلفت " و " ديْن " ليبين أنه دين قديم واجب الآداء ، وحق لا يصح تأخيره والتفريط فيه .

وفى قوله: " يسقى " و " يشرب " و " وسُقُوا وسَقُوا " إيجاز رائع لأنه أحدث المطابقة وأبرز الفكرة وأكدها وجعل السقى والشراب بالمنايا ليبين أنه يختلف عن كل شراب ألفه الناس ، ويوحى بعظم التضحية ، وعبر بالأحرار ليحفز الهمم ويرغبهم فى البذل والتضحية .

وجاءت كلمة " يَبْنِي " فى البيت الثامن عشر ، لتفيد أن أساس عزة الشعوب هى التضحية ، "ولا يحق" جاءت فى موضعها حيث إنها مرحلة تالية للمعنى الذى أفادته كلمة "ولا يدنى" كما أن كلمة " الحياة " جاءت ملائمة للقتلى ، وكلمة " الأسرى " ملائمة للفدى والعتق .

خامسا : الأساليب والتصوير :

اعتمد الشاعر فى هذه الأبيات على الأساليب الخبرية والإنشائية ، وزاوج بينهما مما يدل على براعته وتمكنه من ناحية

القول ، وقد لجأ الشاعر إلى الأساليب الانشائية العديدة في هذه الأبيات ليؤكد بها فكرته ومشاعره تجاه هذا الحدث ففي البيت الأول أمر " سَلِي " وهو أسلوب إنشائي الغرض من الأمر فيه التمني ، وهو في الوقت ذاته يفيد إيقاظ النفس إلى الإحساس الشديد بالظلم والعدوان كما اتجه إلى الاستفهام في قوله : " أبين فؤاده والصخر فرق " والغرض منه النفي ، وفي قوله : " فكيف على قناها تسترق " والغرض منه الإنكار والتعجب .

وفي البيت التاسع نداء : " بني سورية .. " والغرض منه إيقاظ الشعور والتنبيه وقوله : " اطرحوا وألقوا " أمران للنصح والإرشاد ، من يسقى ويشرب بالمنايا " استفهام الغرض منه النفي ،و " اشقوا " أمر للحث واستنهاض الهمم .

أما الأساليب الخبرية فهي كثيرة وأغراضها متنوعة فالبيتان الثاني والثالث خبريان المراد منهما الذم وإظهار عيوب المستعمر ، وفي البيتين الخامس والسادس الغرض منهما اللوم والعتاب ، ففرنسا تعرف قيمة الثورة وتقدر دم الثوار ، فلماذا تنسى ذلك وتعقل مع أهل دمشق ما فعلته؟ والأسلوب في البيت العاشر خبري يفيد النصح وإثارة الاعتزاز بالروابط وكذا الأبيات السادس عشر حتى البيت العشرين والغرض منها الحث على الجهاد والتضحية والفداء .

وإذا كان الشاعر يستعين على تصوير أفكاره ومشاعره ،

باختيار الألفاظ وإيحاءاتها وحسن التأليف بينها فإنــــه لجأ أيضا إلى التصوير الفنى ، فكما هو معروف فإن الصـــور والأخيلة عنصر هام فى الصياغة الشعرية ، يعتمد عليها الشاعر فى التعبير عن تجربته تعبيرا موحيا مؤثرا ، والخيال نوعان: كلى وهو رسم اللوحة الشعرية الممتدة ، وجزئى وهو الاعتماد على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وما إلى ذلك مـــن الصور الجزئية ، وخيال شوقى فى هذه القصيدة خيال جزئى ففى البيت الأول استعارة مكنية فى قوله " سلى " فالنـــداء موجه إلى دمشق حيث جعل الشاعر منها إنسانا يحس ويعقل ويخاطب ، وحذف المشبه به ورمز إليه بصفة من صفاته وهـــو النداء ، وقد أفادت هذه الاستعارة التشخيص ، كما شبه فؤاد المعتدى بالصخر وفيه من الدلالة على القسوة والعنف ، مالا يخفــى .

وفى البيت الثانى تشبيه آخر لقلوب المستعمريــــــن بالحجارة ، وقد أبرز هذا التشبيه قسوة قلوب المستعمريـــن وجحودها ، فهى لا تحس بآلام الشرقيين ولا تقيم لهم وزنا ، وفى البيت الثالث كنايتان : الأولى " أخو حرب " والثانية : " رمى فرنسا " والأولى كناية عن حب هذا القائد للحــرب ، وشغفه بالدماء والثانية كناية عن إساءته لبلده ، وتشويهـــه لسمعتها ، وفى البيت الرابع : كناية فى قوله " شقوا " وهى كناية عن العصيان والبيت كله كناية عن مغالطة المستعمــر وتضليله . وفى البيت الخامس تشبيهان حيث جعل دم الثوار

نورا لأن بذله يخرج الشعوب من العبودية إلى الحرية ،وجعله حقا ، والتشبيهان قد وضحا أثر الثورة ، فهى تقضى علـــى الظلام ، وتهدى إلى الحق ، وفى البيت السادس كنايـــة عن كثرة الدم ، وغزارته فى قوله " جرى فى أرضها " وتشبيـــه فى قوله : " كمنهل السماء " ، فقد شبه الدماء بالمطر فـــى غزارته وإحيائه ، لأنه يروى أغراس الحرية فتنمو وتهيئ لمـــن يعيشون فى ظلالها أسباب الأمن والرزق .

وفى البيت الثامن : كناية عن أثر ثورة فرنسا فى كثير من الشعوب وجهادها فى سبيل هذا الهدف ، وذلك فى قوله : " وحررت الشعوب على قناها " .

وفى البيت التاسع : استعارة مكنية فى قوله " اطرحـــوا الأمانى وألقوا الأحلام " فقد شبه الأمانى والأحلام بشـــئ مادى ثقيل يتعب الكاهل من ثقله ، وحذف المشبه بـــه ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو : " اطرحوا " و " ألقوا " وقـــد جسمت هذه الاستعارة المعنوى وأبرزته فى الصورة الحسيـــة وقوله فى البيت العاشر : " وهى رق " تشبيه حيث شبـــه الألقاب التى يمنحها المستعمر بالرق وهى العبودية ، لأن هذه الألقاب تستعبدهم وتجعلهم تابعين لمن منحوهـــم إياها . وفى البيت الحادى عشر تشبيه تمثيلى ، فقد شبـــه حالة المتكبر المزهو بالألقاب وهو فى حقيقة الأمر ذليل خانع ، بحالة المصلوب مالت عنقه ، فيبدو فى الظاهر كالمتكـــبر المتعاظم ، ولكنه فى الحقيقة قد فقد بالموت كل قدرة علـــى

الاستواء ، ووجه الشبه بينهما أن مظهر كل منهما يخالف
حقيقته ، وقوله فى البيت الثانى عشر : " فتوق الملك " استعارة
مكنية ، حيث شبه الملك بالثوب وحذفه وأتى بصفة من صفاته
وهى فتوق ، وفائدتها أنها أبرزت الفرقة وجسمتها ، ويصح
أن تكون كناية عن مظاهر الخلل فى حياة الأمة ، وقوله فى
البيت الثالث عشر " كلنا فى الهم شرق " كناية عن وحدة
الآلام والمحن .

وقوله فى البيت الخامس عشر : " فاشقوا " كناية عن بذل
الجهد ، وفى البيت السادس عشر مجاز مرسل فى قوله :
" يد " فقد أطلق اليد وأراد الفضل ، واليد كآلة هذا
الفضل ، فهى التى تسدى النعمة والفضل ، وفى قوله :
" دين " استعارة تصريحية ، فقد شبه حقوق الوطن على
أبنائه بالدين الواجب الأداء ، وفى قوله " يشرب المنايا " :
فى البيت السابع عشر استعارة مكنية ، فقد شبه المنايا
بكأس يستقى منه وحذفه ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو يشرب
وفى " يسقوا ويسقوا " كنايتان عن نيل عدوهم منهم ونيلهم
من عدوهم ، وفى البيت الثامن عشر استعارة مكنية فى قوله :
" يبنى الممالك " وهى تدل على ضرورة التضحية والجهد
المتواصل فى بناء الممالك والأوطان .

وفى قوله فى البيت الأخير " وللحرية الحمراء باب "
استعارة مكنية ، حيث شبه الحرية بحصن منيع وحذفه وأتى

بصفة من صفاته وهى " باب " وقد جسمت المعنوى وأبرزته في الصورة الحسية ، وفى قوله " يد مضرجة " كناية واضحة الدلالة على النضال ، وتحمل تبعاته ومشقاته ، وكان التعبير بكلمة " الحمراء " فى وصف الحرية موحيا إيحاء قويا بما تتطلبه هذه الحرية من التضحية بالدماء .

أما عن المحسنات البديعية فى هذه الأبيات فهى وإن كانت كثيرة إلا أنها جاءت فى موضعها واستدعاها المعنى ، فكانت محكمة فى موضعها وإيمائتها على توضيح الفكرة وإظهارها .

وكان الطباق اللون الذى سرى فى هذه الأبيات حيث لجأ الشاعر إليه ليوضح المفارقة ، ويبرز التناقض ، إذ بضدها تتميز الأشياء ، ونرى ذلك واضحا فى الطباق فى البيت الثانى بين " أَ لاَقَــواولا ترق " . وفى البيت الرابع بين " طُــلاَّبُ حَقٍّ وعصابةٍ خرَجوا وشقُّوا " . وفى البيت السابع بين : " مات وتحيا " ، " وزالوا ليبقـوا " وفى البيت الثامن بين " حُرِّرَتْ ، وقُسْتَرِقّ " .

وبين قوله " أُلقاب الإمارة ، وبين : وهى رق " و "صيد ، وذ ليل " ، " يمضى ، ولا يمضى " ، واختلفت وغير مختلف " ، و " موت وحياة " و " نعيم ، فاشقوا " ،و " ويسقى ويشرب " ، ، " ولم يسقوا ، ويسقوا " ، " فقتلى ، وحياة " ،و " الأسرى وفدى وعتق " ، فالطباق الى جانب إبرازه للتناقض ، فهو يضح

المعنى وضده في مجال واحد فيوقظ الشعور ويبعث على التفكير والتأمل ، كما نجد المقابلة في البيت بين معنى قوله: " نحن مختلفون دارا " ومعنى " كلنا في الهم شرق " مما أوضح الفكرة وأظهرها ، فقد أكدت هذه المقابلة أن اختلاف الديار لايضعف التآخي والتواصل بين الدول العربية ما دامت وحدة المشاعر تجمع بينهما .

سادسا : نظرة عامة في الأبيات :

الأبيات التي درسناها من قصيدة طويلة من الشعر السياسي لشوقي لأنها تتناول موضوعا سياسيا هو التنديد بالاستعمار وآثامه ، ومن الشعر القومي لأن الشاعر خرج فيها من نطاق وطنه مصر إلى النطاق العربي وهو مشاركة سورية في نكبتها وقد كان لشوقي الميدان الرحب في هذا المجال ، فله من المناسبات العربية والاسلامية والأحداث الوطنية والقومية العديد من القصائد في مشاركة الحركات التحررية والدعوات العديدة إلى جمع صفوف الأمة والمطالبة باستقلالها وتخليصها من نير الاستعمار .

والشاعر مهد لموضوعه وهو وصف أحداث النكبة بمقدمة طويلة ، ثم عرض في الأبيات موضوع الدراسة لقسوة القائد الفرنسي ، وكأن قلبه قد من صخر فلم يرحم أحدا من أهلها ثم أخذ يمجد الثورة ويعاتب الفرنسيين على جرمهم ويظهر التناقض الواضح بين مبادئ ثورتهم وما يرتكبونه من جرائم

وحشية فى دمشق ، ثم أخذ ينصح أبناء سورية ويدعوهم إلى وحدة الصف وجمع الكلمة ، وينبههم إلى خداع المستعمر وألاعيبه ، وأخيرا أخذ يستنهض العزائم ويحث على التضحية والفداء مما يوضح أن الشاعر لم يقف عند هذا الموضوع وهو نكبة دمشق ، بل تطرق إلى موضوعات ثانوية متعددة مما أفقد القصيدة وحدتها وترابطها وتلاحم بنائها تلاحما كاملا ، وكأنما قالها الشاعر فى فترات متعددة ، فتفاوت نفسه الشعرى خلالها تفاوتا ملحوظا .

وكانت عاطفة شوقى فى هذه القصيدة عاطفة الأسى والألم لكن شوقى خرج عنها فى بعض المواقف وتناول أحاسيس أخرى كالزهو بنفسه والإعجاب بها ، ولعل هدوء عاطفة الشاعر يعود إلى أن القصيدة أنشدت بعد أن هدأت النفوس فترة زمنية ، فقد أنشدت القصيدة بعد مضى ثلاثة أشهر على النكبة التى حدثت فى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٢٥م ، وقيلت هذه القصيدة فى يناير سنة ١٩٢٦م ومع ذلك فإن ملامح شخصية شوقى فى هذه القصيدة واضحة، ووطنيته ظاهرة بينة ، وأحاسيسه رقيقة شفافة كما نجد فى هذه القصيدة سعة ثقافية وكثرة اطلاعه وعنايته بالتاريخ وأحداثه وتأثره بالثقافة العربية والدينية كما يبدو فى قوله " ففى القتل لأجيال حياة " فهو متأثر فيه بقوله تعالى : "وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" وبالمثل العربى القائل "القتل أنفى للقتل" .

* أما ألفاظ القصيدة وأساليبها فهي ألفاظ وأساليب المدرسة المحافظة التي تتميز بجودة السبك وصحة العبارة وحسن اختيار الألفاظ وملاءمتها للمعاني ، وإن كنا نلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات كرر بعض الكلمات أو جلبها للوزن واستقامة القافية ، أو لم تكن دقيقة في موضعها ، فقوله في البيت الرابع : " خرجوا " تغني عن كلمة " شقوا " ولكنه أتى بكلمة " شقوا " ليستقيم الوزن .

وقوله في البيت الرابع عشر : " إذا اختلفت بلاد " يمكن الاستغناء عنه ، لأن قوله " مختلفون دارا " تؤدي نفس المعنى ، وكلمة : " نطق " يغني عنها كلمة " بيان " ، فهي مجلوبة للقافية ، وكلمة " اشقوا " في البيت الخامس عشر ليست دقيقة في موضعها ، وإنما هي مجلوبة للقافية ، وذلك لأن الشقاء لا يحقق الحرية ، وإنما تحققها التضحية والفداء .

أما تكرار قوله " على قفاها " في البيت الثامن فإنه يزيد المعنى قوة ، لأنه يبرز التعجب من تناقض سلوك الفرنسيين ، وكذا تكرار قوله " ألقوا " في البيت التاسع فإنه يفيد تأكيد النصيحة ، ويبين شدة الحرص على تنفيذها .

وفي الأبيات طائفة من الأفكار القيمة التي تكتسب نفاسة وغنى بما توافر لها من القوة والصدق ، وما تهيأ لها من الجودة في التعبير : من حيث اختيار اللفظ وصفاء العبارة ، كما جاءت ممتزجة بوجدان الشاعر فاكتسبت البقاء وصارت

من قبيل الحكمة الخالدة ، ومنها قوله :

وللمستعمرينَ وإنْ ألانُوا
قُلوبٌ كالحِجارةِ لا تَرِقُّ

وقوله :

نَتوقُ الملكِ تَحْدُثُ ثم تَمضي
ولا يمضي لِمُختلِفين فَتْقُ

فهذا البيت حكمة بالغة تلخص التجربة الذاتية وتنقلها إلى تجربة عامة تؤكد ما دعا إليه الشاعر من ضرورة وحدة الصف ، والتحذير من خديعة المستعمر .

وقوله :

ولا يَبْني الممالكَ كالضّحايا
ولا يُدْني الحقوقَ ولا يحقُّ

من الحكم البليغة .

وكذا قوله :

وللحرّيةِ الحمراءِ بابٌ
بكل يدٍ مُضَرَّجةٍ يُدَقُّ

فهي حكم حية خالدة لأنها ممتزجة بوجدان الشاعر وعواطفه .

* * *

النص الثالث

المساء : لخليل مطران

مناسبة القصيدة :

سافر خليل مطران فى شهر يولية سنة ١٩٠٢ وهو عليل إلى مكس الإسكندرية حيث أشار عليه بعض أصدقائه أن يذهب للاستشفاء من مرض ألمَّ به بعد أن خاض تجربة حب فاشلة ، ولكنه لم يجد هناك ما كان يرجو من شفاء ، بل وجد وحشة البعاد ، فوق آلام الحب والمرض ، فأشاع ذلك فى نفسه الحزن وصبغ الدنيا فى عينيه بلون قاتم ، من وحى ذلك كله كانت قصيدته : ((المساء)) التى يبدؤها بقوله[1] :

(١)

دَاءٌ أَلَمَّ فَخِلْتُ فيه شِفَائِى
مِنْ صَبْوَتِى ، فَتَضَاعَفَتْ بُرَحَائِى (١)

يَا لِلضَّعِيفَيْنِ إِ اسْتَبَدَّا بِى
فى الظُّلم مثلُ تحكُّمِ الضُّعَفَاءِ (٢)

قلبٌ أذابَتْهُ الصَّبابةُ والجَوَى
وَغِلالةٌ رَثَّتْ مِنَ الأدواءِ (٣)

والرُّوحُ بينهما نسيمُ تَنَهُّدٍ
فى حالَيِ التَّصويبِ والصُّعَداءِ (٤)

والعقلُ كالمصباحِ يَغْشَى نُورَه
كَدَرِى وَيُضعفه نُضُوبُ دِمَائِى (٥)

---

(١) انظر القصيدة فى ديوان الخليل ١ / ١٤٤ مطبعة دار الهلال سنة ١٩٤٩ م .

إلى أن يقول :

(٢)

إني أقمتُ على التعلة بالمنى
في غربةٍ قالوا : تكون دوائي (٦)

إن يشفِ هذا الجسمَ طيبُ هوائها
أيلطِّفُ النيرانَ طيبُ هواءِ ؟

أو يمسك الحوباءَ حسنُ مقامها
هل مسكةٌ في البعد للحوباءِ ؟ (٧)

عبثٌ طوافي في البلاد وعلةٌ
في علةٍ منفاي لاستشفاءِ

متفرِّدٌ بصبابتي ، متفرِّدٌ
بكآبتي ، متفردٌ بعنائي

شاكٍ إلى البحرِ اضطرابَ خواطري
فيجيبني برياحه الهوجاءِ

ثاوٍ على صخرٍ أصمَّ ، وليتَ لي
قلباً كهذي الصخرةِ الصمَّاءِ (٨)

ينتابها موجٌ كموجِ مكارهي
ويفتُّها كالسقم في أعضائي (٩)

والبحرُ خفّاقُ الجوانبِ ضائقٌ
كمداً كصدري ساعة الإمساءِ (١٠)

تغشى البريّةَ كدرةٌ وكأنها
صعدت إلى عينيَّ من أحشائي

وَالأُفْقُ مُعْتَكِرٌ قَرِيحٌ جَفْنُــــه
يُغْضِي عَلَى الغَمَراتِ وَالأَقْذاءِ (١١)
يَا لِلْغُرُوبِ وَمَا بِهِ مِن عَــــبْرَةٍ
لِلْمُسْتَهامِ وَعِبْرَةٍ لِلرّائِـــيا! (١٢)
أَوَلَيْسَ نَزْعاً لِلنَّهارِ وَصَرْعَــــةً
لِلشَّمْسِ بَيْنَ مَآتِمِ الأَضْواءِ (١٣)
أَوَلَيسَ طَمْساً لِليَقِينِ وَمَبْعَثــاً
لِلشَّكِّ بَيْنَ غَلائِلِ الظَّلْمـــاءِ
أَوَ لَيسَ مَحْواً لِلوُجُودِ إِلى مَــدًى
وَإِبادَةً لِمَعالِمِ الأَشْيَــاءِ (١٤)
حَتَّى يَكُونَ النُّورُ تَجْدِيداً لَهــا
وَيَكُونَ شِبْهَ البَعْثِ عَوْدُ ذُكاءِ (١٥)

(٣)

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالنَّهارُ مُـــوَدِّعٌ
وَالقَلْبُ بَيْنَ مَهابَةٍ وَرَجـــاءِ (١٦)
وَخَواطِري تَبْدُو تُجاهَ نَواظِـــري
كَلْمَى كَدامِيَةِ السَّحابِ إِزائِي
وَالدَّمْعُ مِنْ جَفْنِي يَسِيلُ مُشَعْشَعاً
بِسَنَى الشُّعاعِ الغارِبِ المُتَرائِي (١٧)
وَالشَّمْسُ فِي شَفَقٍ يَسِيلُ نُضَــارُه
فَوقَ العَقِيقِ عَلَى ذُرًى سَوْداءِ (١٨)

مَرَّتْ خِلَالَ غَمامَتَيْنِ تَحــدُّراً
وَتَقَطَّرَتْ كَالدَّمْعَةِ الحَمْرَاءِ
فَكَأَنَّ آخرَ دَمْعَةٍ للكونِ قَــدْ
مُزِجَتْ بآخرِ أَدْمُعى لِرِثَائــى
وَكَأَنَّنى آنَسْتُ يَوْمِى زَائــلاً
فرأيتُ فى المِرْآةِ كيْفَ مَسَائى

أولا : التعريف بالشاعر :

ولد خليل عبده مطران فى أول يوليو سنة ١٨٧٢م بمدينة بعلبك بلبنان لأسرة مسيحية (كاثوليكية) ، ثم انتقل إلى " زحلة " ليدخل مدرستها الابتدائية ثم إلى بيروت ليدخل الكلية البطريركية للروم الكاثوليك ، ومنها حصل على قدر كبير من الثقافة وجمع فى هذه الدراسة بين دراسة الأدب العربى واللغة الفرنسية وآدابها ، ثم عين مدرسا بالكلية بعد أن تخرج منها ، وكتب المقالات والقصائد المتنوعة حتى ذاعت شهرته بعد تخرجه من الكلية وكانت الذبحة الشهيرة التى حدثت فى سورية ولبنان سنة ١٨٨٦م محركا قويا للأحرار الذين ضاقت بهم بلادهم ، فركب مطران الباخرة من ميناء " بيروت " خفية مساء يوم من أيام سنة ١٨٩٠م قاصدا باريس ليعيش فيها ويعمل مع إخوانه الأحرار من أجل خلاص بلاده من أيدى المستعمر وحصولها على حريتها ، وفى طريقه نزل بالإسكندرية وقضى بها بضعة أيام التقى فيها ببعض الأدباء والمثقفين

مما كان له أثره فى نفسه ، ثم أكمل رحلته بعد ذلك إلى باريس وقضى بها عامين فى دراسة الأدب وقراءة آثار الأدباء والشعراء المشهورين ، وعلى الأخص الرومانسيين منهم ، وكان له إلى جانب ذلك نشاط واسع مع زملائه الأحرار فى الحركة الوطنية التركية مما جعل الحكومة التركية ترقب تحركاته وترصد العيون من حوله ، ولما أحس بالمراقبة والمحاربة من السلطات التركية اختار مصر لتكون وطنا دائما له ، ويترك باريس إلى الإسكندرية فى عام ١٨٩٢م وقد بلغ العشرين من عمره ويعيش حياته بعيدا عن السياسة المصرية ونزاع الأحزاب والطائفية بعد أن جرب الاشتراك فيها .

ويبدأ نشاطه الأدبى فى مصر فيعمل فى جريدة الأهرام والمؤيد يكتب المقالات وينشئ القصائد ثم يصدر " المجلة المصرية " عام ١٩٠٠م ثم " الجوائب المصرية " سنة ١٩٠٣م ثم يتفرغ للعمل فى الأعمال التجارية ، لكن خبرته كانت محدودة فى هذا المجال فوقع فى خسائر متتالية فقد فيها كل ما يملكه عام ١٩١٢م ، وكانت صدمة كبرى أورثته الملل واليأس حتى فكر فى الانتحار تخلصا من همومه وأحزانه ، ولكن بمواساة أصدقائه وأحبائه اجتاز هذه المحنة وكان لمطران أثره فى الأدب وشئون التمثيل والمسرح فترجم مسرحيات وروايات لفرقة جورج أبيض ، كما عين مديرا للفرقة القومية عام ١٩٣٤م ، وتحمل كثيرا من الجهد والمعاناة فى سبيل الرقى بهذه الفرقة كما انتخب رئيسا لجماعة أبوللو بعد وفاة شوقى فى أكتوبر سنة

١٩٣٢م ، وواصل أعماله الأدبية واتجاهاته التجديدية في الشعر حتى توفى مساء الخميس ٣٠ من يونيه سنة ١٩٤٩م .

وكان خليل مطران ثالث عمالقة الشعر في الشرق العربي الذين نهض الشعر العربي على أيديهم في النصف الأول من القرن العشرين وهم : شوقي وحافظ ومطران وقد قام الخليل بنصيب موفور في إعلاء شأن الشعر العربي وتجديده ، وتحريره من قيودها القديمة في الأغراض والمعاني والخيال مع العناية التامة بوحدة الموضوع ، ومن آثاره ترجمة عدد من روايات شكسبير " عطيل ، ماكبث ، هاملت " وله عدد من المؤلفات الأدبية والاقتصادية إلى جانب ديوانه " ديوان الخليل " ، الذى ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٠٨م ونشرتها دار المعارف بالقاهرة في ثلاثمائة صفحة ثم ألحقت به أجزاء ثلاثة أخرى عام ١٩٤٩م ، وطبع كاملا في أربعة أجزاء .

((راجع في حياته وأدبه : التجديد في شعر خليل مطران ، وحياة مطران لطاهر الطناحي ، وخليل مطران شاعر الأقطار العربية لجمال الدين الرمادى .

ثانيا : معاني الكلمات :

١ ـ أَلَمَّ به : نزل به وزاره زيارة يسيرة ، صبوتي : حنيني وشوقي . بُرحائي : ألمي ومتاعبي .

٢ ـ الضعيفان : هما مرضه وحبه العاثر .

٣ ـ الصبابة : رقة الشوق ، الجوى : شدة الوجد من الحب ، الغلالة : الثوب الرقيق الشفاف ، يريد بها جسمه النحيل .

٤ ـ التصويب والصعداء : حركة النفس من استنشاق الهواء وإخراجه .

٥ ـ يغشى : يغطى ، نضوب دمائى : جفافها ويبسها .

٦ ـ التّعلة : التلهى والتشاغل .

٧ ـ يمسك الحوباء : يحفظ النفس .

٨ ـ ثاوٍ : مقيم .

٩ ـ ينتابها : يأتيها مرة بعد أخرى ، المكاره : جمع مكرهة ، وهى ما يدعو إلى الكراهية أى البغض والمقت ، ويراد بها هنا المصائب .

١٠ ـ خفاق : مضطرب ، الكمد : الحزن الشديد .

١١ ـ الممتكر : المظلم ، القريح : المجروح ، والغمرات : الشدائد جمع غمرة ، الأقذاء : جمع قذى وهو ما يقع فى العين فيؤلمها .

١٢ ـ العبرة : الأولى بفتح العين : الدمعة ، والعبرة الثانية بكسر العين : العظة ، المستهام : المغرم الشديد الحب .

١٣ ـ نزعا : المراد هنا الإشراف على الموت أو الاحتضار ، صرعة : المرة من صرعه أى طرحه على الأرض .

١٤ ـ المدى : الغاية ، والمعالم : جمع معلم وهو الأثـــر يستدل به على الطريق ، أراد بها : يظهر من الأشياء عند إشراق النور عليها .

١٥ ـ ذُكاء : الشمس .

١٦ ـ المهابة : الخوف مع الاجلال والاحترام .

١٧ ـ مشعشعا : الممزوج المختلط ، السنى : النور .

١٨ ـ الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتها فى آخر النهار .

النُضار : الذهب ، العقيق : الخرز الأحمر (الياقوت)

الذرى : جمع ذروة وهى أعلى كل شئ .

ثالثا : المعانى والأفكار :

أ ـ يتحدث الشاعر فى فاتحة القصيدة عن داء أضـــنى جسده ، وآخر من مرض ألم به ، هما داء المرض والحب وروحـه بينهما شقية معذبة ، أما عقله فتغمره منهـا غشاوة من الكـدر والألم ، لقد ظن الغربة تشفيه غير أنها لم تصنع شيئا غـــير الوحشة والتفرد بالصبابة والكآبة والعناء ، فأصبح جسمه غلالة رقيقة من كثرة الأمراض ، وروحه تتردد فى أنفاسه من كثـــرة تنهده ، والعقل غشيت أنواره الأكدار والأمراض ، وهكـــذا صور مطران نفسه فريسة مرضين قاتلين ، مرض الحب ومرض الجسد اللذين استبدا به وأنهكا قواه ، وتركاه يئن من لوعة الشـــوق وجراح الألم .

ب - وفى المجموعة الثانية من الأبيات يصور الشاعر يأسه من الشفاء من أدوائه المستفحلة وعلله المستعصية ، التى تجمعت كلها لتحطيم قلبه وتمزيق جسده ، وحتى شفاء الجسد وإن حدث - فإنه لا يجدى ما دامت نار الوجد متأججة فى جوانحه ، فلقد أقام بالإسكندرية وجرب ما نصح به الناصحون من طيب هوائها وجميل مناظرها وسحر طبيعتها معللا نفسه بأمنية الشفاء ، لكنه لم يجد شيئا منه ، لأن هؤلاء الناصحين إن كانوا قد فطنوا إلى علته الجسدية فقد فاتهم أن يفطنوا إلى علته النفسية التى نجمت عن الغربة وبعده عمن يحب .

ولهذا فقد بدا له أن تنقّله فى البلاد كان محض عبث وأن اغترابه عن القاهرة كان منفى له ، أضاف بوطأته عليه علة جديدة ، لأنه جلب عليه الوحشة التى صرفته إلى قصة حبه ، فكانت سببا فى مزيد من عنائه واضطرابه ، لقد وجد نفسه فى وحدته فريسة لأشجانه وأشواقه وآلامه .

ويشتد به ذلك كله نتيجة إلى البحر وهو جالس على صخرة من صخور شاطئه ، يشكو إليه ما يعانى من اضطراب ، ولكنه مضطرب مثله يجاوبه برياحه العاصفة الهادرة ، وإذ ذاك يتمنى الشاعر لو كان له قلب جامد جمود الصخرة الصماء التى يجلس عليها ، ولكنه ما يلبث أن يتخلى عن هذه الأمنية لأنه يجد الصخرة تعانى مما يعانى منه قلبه ، فالأمواج تلاطمها

وتتوالى عليها كما تتوالى على قلبه أمواج الهموم وتحطمها كما يحطم السقم جسده ، ويتجه إلى البحر بالشكوى و ، وإذا هما سواء ، فهو يضطرب بخواطره ، والبحر يضطرب برياحه حتى الصخر الأصم الذى يجلس عليه تنتابه الأمواج كما تنتابه المكاره ، وتفت فيه كما يفت السقم فى أعضائه ، وإن البحر ليخفق صدره بالآلام حتى لكأنه يضيق عنها كما يضيق صدره بهمومه فى هذا المساء الحزين ، وينظر من حوله فيرى أن الوجود كله فى قتام ، وأن هذا القتام الذى تراه عيناه انما هو ظلال نفسه الكئيبة ، ويتمثل له الأفق فى كدرته التى تشد بها حمرة الشفق شخصا قريح الجفنين ، يغمصها على القذى والألم .

وعند ذلك يقف الشاعر أمام الغروب مأخوذا بكآبته ورهبته ، فيرى فيه مشهد الوداع بما يصحبه من بكاء المشوق المستهام وعبرة المتأمل فى الحياة وتقلبها بل يرى أنه موت للنهار بحيويته وحركته ومصرع للشمس بين جنازة الأضواء .

بل إنه طَمْسٌ لليقين وبعث للشك فى النفوس ، كما إنه محو للوجود بكل معالمه ، حتى يبعث الصباح من جديد ، ويشرق نور الصبح البهيج .

جـ – وفى الجزء الأخير من القصيدة ، يصف الشاعر ما يعانيه من تمزق وألم وإحساس ، حيث انطوى على الذكرى بقلبه الجريح وعواطفه المكلومة ، فيَعْبر خياله الآفاق فإذا حبيبه

ماثل أمامه والنهار فى لحظات الوداع الأخير وقلبه بين رهبة الغروب وما يوحى به من نهاية لحبه ، وبين الأمل فى أن يعود هذا الحب سيرته الأولى .

ولكنه كان أميل إلى التشاؤم : كانت خواطره سوداء جريحة تبدو كأنها السحاب الدامى بحمرة الشفق ، وكان دمعه ينحدر من عينيه ممزوجا بما بقى من أشعة الشمس الغاربة . والشمس غارقة فى الشفق الذى جمع بين صفرة الذهب وحمرة الياقوت ، وترامى هناك بعيدا على الرّوابى السواد ، وإذ ذاك مرت الشمس بين سحابتين منحدرة إلى المغيب ، فكانت كدمعة حمراء سائلة بين سواد جفنين ، كانت هذه آخر دمعة للكون فى ذلك النهار ، وكأنها قد امتزجت بآخر دموع له فى هذه الحياة التى أحس أنه مقبل على نهايتها ، وأنه يرى تلك النهاية واضحة فى مرآة المساء .

رابعا : الدراسة الفنية :

التعبير والتصوير :

أ ـ هذه القصيدة ترجمة ذاتية شعورية صور فيها مطران نفسه العليلة وتغنى بآلامه التى تجمعت فى أعماقه ، ولم يجد غير الطبيعة يبثها شكواه ويودعها متاعبه مازجا بين ذاته وبينها ، فهو لا يرى إلا صورا من ألمه ، وحزنه وضيقه ، وقد استخدم الشاعر ألفاظ اللغة استخداما جيدا ، وفى صياغة رصينة ،

مع قدرة بارعة على الإيحاء والتصوير • كما إنه اتجه إلى كثير من العبارات الرمزية المشعة التي تحمل طاقة شعورية قوية ، بما ينبعث فيها من وحى الألفاظ ورمزية الصور ، والتى تنم عن جرأة في الصياغة ، وخروج على الاستعمال العربى المحافظ في التعبير والتصوير •

فالبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا ، والأفق معتكر قريح جفنه ، يغضى على الغمرات والأقذاء ، والنهار يُنزع والشمس تُصرع ، والأضواء تلبس الحداد والخواطر كلمى ، والدمع مشعشع ، والدمعة حمراء ، وهذا اتجاه حديث في التعبير اتجه إليه شعراء الغرب ممن نادوا بتجاوب الحواس فأطلقوا على المسموع صفة المشموم ، ووصفوا الأصوات بما توصف به المرئيات وأقاموا علاقات جديدة بين الأشياء لاقتناعهم بأن الحواس تتجاوب ويأخذ بعضها صفة بعض •

وقد استطاع خليل مطران أن يؤلف كثيرا من الصور الشعرية الجديدة من مجموعة هذه التعابير الرمزية المشعة يؤازره في ذلك خيال خصب وتأملاته العميقة وقدرته على المواءمة والتأليف بين أجزاء صوره مازجا بين أحاسيسه ومظاهر الطبيعة مزجا يدل على مهارة وقدرة فنية عالية •

ب - وإذا عدنا إلى أبيات المجموعة الثانية نجد الشاعر ينقل إلينا لوحة فنية رائعة للشاعر والطبيعة من حوله في المساء ، فالشاعر قابع في حاشيتها فوق صخرته وحيد مضطرب الخواطر

ضائق النفس ، ونجد فى صدر اللوحة البحر المضطرب برياحه العاصفة ، والأمواج المتلاطمة تتكسر على صخور الشاطئ والكدرة تغشى الكون والأفق معتكر قريح الجفن .

والشاعر فى هذا التصوير الرائع ينقل الظواهر الطبيعية مرتبطة بحسه ويضفى مشاعره على الطبيعة حتى لتأتى مظاهرها تعبيرا عن هذه المشاعر . فالرياح الهوج إنما هى خواطره الثائرة المتقلبة ، والأمواج المتلاطمة أحزانه المتدفقة والبحر الهادر صدره المضطرب ، والنهار يُنزع والشمس تصرع ، والأضواء تلبس الحداد .

ج - وفى المقطع الثالث : تطالعنا نفس الشاعر فى قمة انفعالها بالموقف ، فهى بين خوف ورجاء وهى كئيبة غاية الكآبة ترى فى الغروب نذيرا بنهاية صاحبها . والشاعر فى لحظات الغروب واجف مضطرب جريح الخواطر دامع العين ، والطبيعة من حوله تشاركه شعوره وتصدر فى مظاهرها عنه ، فالشمس دمعة حمراء تنحدر من دموعه وهى آخر دمعة للكون فى ذلك اليوم ، وكأنما نزلت لرثائه مع آخر دموع له فى الحياة .

د - أما الأبيات الأولى فإن العاطفة فيها تخفت ويطغى عليها العقل والمنطق فينزع الشاعر فيها إلى التوليد والتقسيم والاستقصاء ، فيستقصى آثار الألم فى الجسم والقلب والعقل والروح حتى ليخيل للقارئ أن الشاعر فى معرض وصف لا شكوى فالروح نسيم تنهد فى حالى التصويب الصعداء . والعقل

كالمصباح يغشى نوره كدر نفسه ، فمثل هذه التصويرات يطغى فيها العقل على الوجدان ، ولعل ذلك راجع إلى حرص مطران على أن يكون هذا المزج بين العقل والعاطفة من مظاهر التجديد الذى كان ينادى به ، ويحرص عليه أشد الحرص .

فهذه القصيدة مثال رائع من أمثلة شعر مطران فى الطبيعة فلم يقف الانسجام بين الشاعر والطبيعة إلى حد مخاطبتها ككائن حى إنما استحال إلى اندماج تام واتحاد كامل بين الشاعر والطبيعة إذ أضفى على الطبيعة مشاعره ، وهو عليل فى مكس الاسكندرية ، فبدت حيال عينه أسيفة حزينة وهو فى هذا الانسجام الرائع بينه وبين الطبيعة ينقل إلينا لوحة فنية كلية تتكون من أخيلة جزئية تأتلف وتترابط لتضح أمامنا مشهدا واضحا معبرا . ففى هذه القصيدة نرى الخيال الذى يشخص الطبيعة ، فتبدو مشاهدها عناصر حية فى التجربة فالبحر يجيب الشاعر وهو ضائق كمدا ، والأفق قريح الجفن يغض على الغمرات والأقذاء . ومما أضفى على هذا التصوير الروعة والبهاء أنه ينقل الظواهر الطبيعية مرتبطة بحسه وأنه يضفى مشاعره على الطبيعة حتى لتأتى مظاهرها تعبيرا عن الشاعر ، فالرياح الهوج إنما هى خواطره ، الثائرة المتقلبة ، والأمواج المتلاطمة أحزانه المتدفقة ، والبحر

الهادر صدره المضطرب ، والنهار ينزع والشمس تصرع ، والشمس في الشفق الأحمر الباكي تنحدر وتتقطر تقطر الدمعة الحمراء التي سكبتها عينه وصفحة السماء خلال تلك اللحظة مرآة رأى فيها الشاعر مساء حياته .

والشاعر لا يكتفي بالتشبيهات والاستعارات اللغوية ، بل يمد أبعاد الصور وخاصة في الطبيعة ، فإذا لعناصرها آلامها وأحزانها وكل ما للانسان من حس ومشاعر حتى الموت .

كما استخدم بعض المحسنات البديعية القليلة غير المتكلفة مثل : حسن التقسيم في قوله : " متفرد " البيت ، والطباق بين "أقمت وغربة " ، وبين : " علة وشفاء " وبين : "شاك ويجيبني " والجناس الناقص في : " عَبرة ، وعِبرة " والترادف في : " نزْعاً وصرعة " واستخدام هذه المحسنات ليس مقصوداً لذاته فبعضه أدى وظيفة موسيقية وبعضه أدى وظيفة معنوية .

كما تنوعت الأساليب بين الخبر والإنشاء للتعبير عن مشاعر الشاعر وأحاسيسه ، فمن الأساليب الإنشائية : الاستفهام في قوله : أيلطف ؟ وهو للنفي .

الوحدة في القصيدة :

تعالج القصيدة كلها موقفا شعوريا واحدا هو موقف المحب العريض الذي يعاني مع حبه ومرضه آلام الغربة والبعاد فهي تجربة ذاتية تدور حول موضوع واحد مترابط في إطار الأفكار والمشاعر .

ويظهر هذا الترابط فى أن الأبيات مترابطة كل بيت له مكانه يلتصق ويلتحم بما قبله وبما بعده ، وإن لم تصل هذه الوحدة إلى ما عُرف بالوحدة العضوية التى تجعل من القصيدة كُلاً مترابطا . إذ يسهل علينا أن نحذف بيتا من أبياتها أو أن نضعه فى غير مكانه دون أن يختل نظام القصيدة أو تفقد ترتيبها وخاصة فى الأبيات التى يصف فيها الشاعر مفاتن حبيبته ويتغزل فيها ومنها :

يَا كَوْكَبًا مَنْ يَهْتَدِى بضيائه
يَهْدِيه طالعُ ضِلَّةٍ ورِيَاءِ (١)

ما موردًا يَسْقِى الورودَ سَرابُه
ظمأً إلى أن يَهْلَكُوا بظماءِ

يا زهرةً تُحْيِى رَواعى حُسْنِها
ويُمِيتُ نَاشِقَها بلا إرْعَاءِ (٢)

هذه الأبيات يمكن تقديم بعضها على بعض ولا يتأثر المعنى أو يختل .

وكذلك الأبيات الأخرى التى تبدأ بقوله : نعم الضلالة ، نعم الشفاء ، نعم الحياة ، فهنا نستطيع أن نقدم أيا من هذه الأبيات الثلاثة على الآخر .

---

(١) الضِّلَّة : الحِذْق بالدلالة يقال : دليل به ضُلَّة ، أى حاذق بالدلالة ، ورِياء : من رئيا : أى المنظر الحسن .
(٢) بلا إرعاء : بلا إبقاء عليه .

وليس هذا عيبا فى شعر مطران ، فإن طبيعة القصيدة الغنائية لا تتحقق معها وحدة عضوية كالشعر القصصى ، والشعر التمثيلى .

نظرة عامة فى الأبيات :

الأبيات التى اخترناها للدراسة من قصيدة " المساء " لمطران وهى قصيدة بلغت أربعين بيتا ، والأبيات الأولى هى بداية القصيدة ، أما أبيات المجموعتين الثالثة والرابعة فهى الأبيات الأخيرة من القصيدة ، وقبلها اثنا عشر بيتا ، اتجه فيها الشاعر إلى عتاب محبوبته التى لم تعطف عليه ، ثم تغزل فيها بوصف محاسنها ، وهذه الأبيات يظهر فيها كما ذكرنا عدم ترابط الأبيات ، وأنه يمكن تقديم بعضها على بعض لأنها تعبير عن الشاعر وأحاسيسه ، وقد تمكن مطران من المزج بين عاطفته وعقله فى هذه القصيدة أو بين وجدانه وفكره ، وقد بدت العاطفة قوية حارة فى جانب كبير من مقاطع القصيدة ، حيث حملت كثيرا من عناصر الإثارة مما يجعل القارئ يتمثل التجربة أتم تمثيل ، ويتجاوب شعوريا مع معانيها التى عبرت عن ألم الشاعر ومعاناته الوجدانية ، وتعطى الأبيات التى اخترناها للدراسة نموذجا لفن الوصف الوجدانى التى يتميز بها خليل مطران ، فى تناوله للطبيعة ، فهو لا ينفصل عنها ، بل يندمج فيها حتى تظهر وكأنها تحس ما يحس ، وتعبر عن نفسه ومشاعره ،

ومنها يشيع الحزن الذى يسيطر على نفس الشاعر ويتنقل فى ثنايا القصيدة سائرا الى النهاية التى تمتزج فيها آخر دموع الكون بآخر دموع الشاعر فى المساء الذى كان موضوع القصيدة ونهاية لها .

كما نرى فى هذه الأبيات صورة عامة تتألف من عناصر مختلفة ، ولكنها متفقة الدلالة مسايرة للخط الفكرى والخط الشعورى فى القصيدة ، وهذا من ملامح الخيال التركيبى الذى لا يعتمد على الصور الجزئية المتناثرة ، بل على الصورة الكلية التى تندرج فيها كل صورة جزئية ، وقد أضافت إليها عناصر جديدة ، وذلك هو المضمون غير التقليدى الذى جعل النقاد يعدون مطران من أوائل الرومانسيين فى الأدب العربى .

والقصيدة كلها نموذج صادق لفن مطران المركب الذى يبرز فيه عنصر الفكر إلى جانب جمعه بين العاطفة والخيال فى إطار واحد ، وإذا اعتمدت موسيقى الأبيات على الوزن والقافية فإنها ارتبطت كذلك بالموسيقى الداخلية التى تأتى من ائتلاف الألفاظ والصور وما وراءها من جو نفسى حزين مما يعد تجديدا واضحا فى شعر مطران ، فشعره يمثل خطوة انتقالية بين المدرسة القديمة بما تحافظ عليه من وحدة الوزن والقافية ورصانة الصياغة إلى المدرسة الرومانسية التى يعد من أوائل روادها فى الأدب العربى بما فى شعره من ذاتية واضحة وعاطفة جياشة والاتجاه إلى الخيال والفرار

الى الطبيعة التى تمتزج نفسه بها ، وتبادلها المعانى والأحاسيس وكأن الطبيعة عنده كائن حى يتمتع بكافة وخصائص البشر من خوالج وأحاسيس ٠

ومما وجه للشاعر من نقد : استخدامه لكلمة : " أحشائى " استخداما غير دقيق قاصدا ما فى داخل نفسه ٠ وكلمة : "إزائى " لأنها ليست شاعرية ولم تُضف جديداً بعد قوله: " تجاه نواظرى " فهى مجلوبة للقافية وكذلك كلمة " المترائى " ٠

وقد اعتمدت الصورة الكلية فى الأبيات على صور جزئية من تشبيهات واستعارات وكنايات ٠ فالتشبيهات مثل : " الروح نسيم تنهد" والعقل كالمصباح ،وغربة تكون دوائى ،و" عهُدُ طوافى " و "منغاى علة " وقلب كهذى الصخرة الصماء " ويوم كموج مكارهى " والبحر ٠٠ كمصدرى "وخواطرى كدامية السحاب " ،وتقطرت كالدمعة الحمراء " ٠

والاستعارات مثل : داء ألم ، الضعيفين ،استبد ابى ،أذابته الصبابة والجوى ،وغُلالة استعارة تصريحية حيث شبه جسمه الذى أنهكه الألم والمرض بالغُلالة ، أما قوله : إن يشْف هذا الجسم طيب هوائها؟ وشاك إلى البحر ،ويجيبنى ،والبحر خفاق الجوانب ضائق ،تقريح جفنه، نزعاً للنهار ،وصرعة للشمس ،والنهار مودّع ،دامية السحاب ، دمعة للكون " فهى استعارات مكنية ٠

أما الكنايات فمنها : متفرد بصبابتى ٠٠٠ البيت
وقوله : " القلب بين مهابة ورجاء " كناية عن الاضطراب والحيرة، وآنست يومى زائلا " كناية عن نهاية الشاعر ٠

النص الرابع

إلى عيد الغاصبين لأحمد محرم

(١)

أتسألُ مصرُ ما حَمل العيدُ ؟
وهل عند الرّماة لها جديدُ ؟(١)
هو السّهمُ الذى عرفتْه قِدماً
وجرّب وَقْعَه الشّعبُ الوئيدُ (٢)
تَعَوّدَ مُبْدِئٌ وطغى مُعيدُ
ولم تزل الرّعيّةُ تستزيدُ
مسيحَ الهندِ إنّ بمصرَ شعباً
يشقُ عليك إنْ خضعَ الهنودُ (٣)
دعِ الزّعماءَ إنّ لهم لديناً
يَدينُ بغيره الشّعبُ الرّشيدُ
إذا ذكروا الزّعامةَ فهْى دعْوَى
يكيدُ بها "الكِنانةَ" مَنْ يكيدُ
ولا تبقى البلادُ إذا أُصيبَتْ
بِمَنْ يَبغى الزّعامةَ يستفيدُ
لِمَنْ تتألّبُ الأحزابُ شتّى
وما هذى الصّواعقُ والرّعودُ ؟(٤)
تداعَوْا للوغَى فهَوى صريعاً
على أيديهمُ الوطنُ الشّهيدُ (٥)

مضتْ أسلابُه تزجى إليهم
فمأتمُه لدى الأقوامِ عيدُ (٦)
إذا سادَ التخاذُلُ فى أُناسٍ
فأعوزُ ما ترى شعْبٌ يسودُ (٧)

(٢)

عميدَ الغاصبين نزلتَ أرضاً
يَبيدُ الغاصبون ولا تَبيدُ (٨)
يذودُ الواحدُ القهّارُ عنْها
إذا قهرتْ جُنودُك منْ يَزودُ
أتذكُرُ إذْ لقومك ما أرادُوا
وإذْ لكُرومَر البطشُ الشّديدُ (٩)
تطُوفُ جنودُه فتَصيدُ منّا
ومنْ سِرْبِ الحمائمِ ما تَصيدُ
أتذكُرُ "دِنْشِوَاى" وكيف كادتْ
جوانبُها بأهْليها تَميدُ (١٠)
تضجُّ منَ العذابِ ولا سبيلٌ
إلى غيْرِ العذابِ ولا محيدُ
أتذكُرُ إذْ نُماتِبُه فيطغَى
ويَهدِرُ فى مقالتِه الوعيدُ ؟ (١١)
أخذْناه بقارعةٍ ألحّتْ
عليه فزالَ ، واشتدتِ الكبودُ (١٢)
صدعْنا رُكْنَه فانقضَّ يهوى
وذابَ الصَّخْرُ أجمعُ والحديدُ (١٣)

هَوى جَبلٌ مِنَ العُدْوانِ عالٍ
وزُلْزِلَ للأذى صرحٌ مَشيدُ (١٤)

(٣)

ونحنُ القائمون بحقِّ مصرٍ
إذا ما استَسْلَمَ القومُ القعودُ (١٥)
ونحنُ المُقْبِلُونَ على المَنايا
إذا الأبطالُ كان لهمْ صُدودُ
نَضِنُّ بِمصْرَ إنْ عَدَتِ العَوادِي
ولكنّا بأنفسنا نَجُودُ
هى الذِّممُ المصونةُ والعُهودُ
فما يَبْغِى "كرومرُ" أو لويدُ ؟(١٦)

أولا : مناسبة النص:

فى عام ١٩٢٥م وكانت مصر تحت الانتداب البريطانى عُين العميد البريطانى "جورج لويد" خلفا للورد "أَلَنْبى" الذى كان متغطرسا شديد البطش والإرهاب فسارع رجال الأحزاب فى مصر إلى (قصر الدوبارة) قصر العميد البريطانى وأخذوا يتساءلون عن السياسة الإنجليزية الجديدة التى يحملها معه ليعرف كل منهم دوره الذى سيمثله على مسرح الحياة السياسية ، وكان "جورج لويد" قبل مجيئه إلى مصر ممثلا لبريطانيا فى الهند ، وهناك حاول أن يخدع الهنود

فارتدى زى المسيح عليه السلام وأخفى وراءه المخالب والأنياب وأخذ يبشر بالسلام أملا فى أن تنخدع الهند وتستسلم لبريطانيا ، وتتركها تغتصب حقوقها وتنهب ثرواتها تحت شعار تلك الدعوة المزيفة .

وقد أثار ما فعله رجال الأحزاب فى مصر غضب الشاعر أحمد محرم فنظم قصيدة طويلة منها هذه الأبيات التى اخترناها للدراسة ، يهاجم فيها الاستعمار ورجاله ويحذر من مغبة السياسة الاستعمارية ويندد بانقسام الزعماء ، ويهيب بالأمة ألا تقع فى شرك الاستعمار ، وأن تصمد للكفاح والنضال حتى يتحقق لها حريتها وتستعيد كرامتها من المحتل المغتصب .

ثانيا : التعريف بالشاعر :

" أحمد محرم " كلمة محرم فى اسم الشاعر ليست اسما لأبيه ولا لقبا لأسرته ، ولكنها تتمة لاسمه المركب من كلمتين وقد يكون السبب فى إضافة كلمة " محرم " إلى اسمه (أحمد) أنه ولد فى شهر المحرم ، كما سمى شقيقه الأكبر : (محمود صفر) لولادته فى شهر " صفر " ، أما أبوه فهو " حسن أفندى عبدالله) تركى من المماليك الجراكسة ، وأمه من أصل تركى ، ولكن هذا الأصل اختلط كما يقول (أحمد محرم) بقليل من الدم المصرى ولا نعلم شئ خلاف ذلك عن الأسرة التى ينتمى إليها الشاعر ولا عن البيت الذى درج فيه فالباحث عن حياة أحمد محرم وسيرته الذاتية لا يجد كثيرا من الخيوط

التى تصل حلقات حياته التى امتدت ما يقرب من سبعين سنة ، مع أنه كان أحد الأعلام فى الحياة الأدبية فى النصف الأول من هذا القرن ، وكان ذائع الصيت والشهرة فى عالم الشعر الذى كان أحد عمده الرئيسة .

ولد أحمد محرم سنة ١٨٧٧م فى قرية " أبيا الحمراء " من قرى مركز الدلنجات بمحافظة البحيرة لأسرة فقيرة حيث كان يقوم أبوه بالإشراف على ضيعة لبعض ذوى اليسار فأدخله الكتاب الذى تعلم فيه القراءة والكتابة وحفظ فيه شيئا من القرآن الكريم ، ثم أخذ يقرأ الكتب والدواوين وأكب عليها فى جدٍّ ونَهَمٍ ثم بعث به أبوه إلى إحدى مدارس الحكومة بالقاهرة ، ولكن نفسه كانت قد انطبعت على حب العربية وشدة الشغف بعلومها ، فلم يجد فى المدرسة إلا تعليما لا يحبه ولا يروى له ظمأ ، فنقله أبوه إلى مدرسة أخرى ، لكن أحمد محرم — كما يقول هو عن نفسه — لم يكن يريد إلا منزلة المتنبى ومقام البحترى ، فاستأذن والده فى الانقطاع عن المدرسة بقصيدة أبان فيها عن ذات نفسه ورغبته ، فأذن له وعاد إليه ، وأخذ يختار من الكتب ما تنبعث نفسه إليه من أمهات الكتب فى الفلسفة والتاريخ والأدب واستظهر كثيرا منها .

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أقبل على الصحف السياسية والمجلات العلمية ، يكتب فيها عن المبادئ المنتزعة من حقائق التاريخ والمذاهب القائمة فى صميم الآداب وقد انطبعت فى أحمد محرم طبيعتان كان لهما أبعد الأثر فى توجيه حياته

الفنية وطبع سلوكه فى حياته العامة بطابع خاص متميز وهما : الشاعرية التى وهبه الله إياها ، والاستعداد الفطرى للمشاركة فى الحياة العامة . وقد برزت شاعريته منذ حداثة سنه ولزمته حتى صار شيخا كبيرا يستعد لتوديع الحياة ، وقد وجد فى الصحافة المنبر الذى يتطلع إليه لتحقيق غاياته وإرضاء طموحه إلى الشهرة ، وإشباع رغبته فى المشاركة فى الحياة العامة ، وكانت الكتابة مورد رزقه وقد اتخذ من مجلة " الصدق " التى كانت تصدر فى دمنهور مدرسة أدبية جعلها تقف مع أرقى المجلات الأدبية وتضارع صفحتها الأدبية أكبر الصحف وأقواها ، وقد اتخذ منها مدرسة يقدم فيها الشعراء الناشئين ويسدد خطاهم ويمهد أمامهم الطريق ، وكانت الصحف ترحب بشعره الذى يوافيها به وتنشره ، فقد كان يتمتع بمنزلة رفيعة بين كبار الشعراء العصر على الرغم من عزوفه عن المجتمعات وبعده عن القاهرة مركز النشاط الأدبى وإقامته فى دمنهور ، وعندما أنشئت جماعة أبوللو سنة ١٩٣٢م كان هو وخليل مطران نائبين للرئيس ، وشارك محرم مشاركة فعالة فى تحرير مجلة " أبوللو " فنشر فى أول عدد منها قصيدة من شعر الحب عنوانها : " من هموى " وبحث عن أدب المرحوم " السيد توفيق البكرى " وشاعريته وأخذ يمد المجلة بمقالاته وشعره .

والصورة العامة لشعر أحمد محرم هى صورة الشعر عند فحول شعراء هذا العصر أمثال البارودى وشوقى وحافظ وإسماعيل صبرى وعزيز أباظة والعقاد والرصافى والزهاوى وغيرهم

من الذين ملئوا الحياة الأدبية وأثروا الديوان الشعر العربي وأثَّروا في مشاعر الأمة وأذاقوها حلاوة فنهم الجميل .

وكان أحمد محرم متمكنا من لغته نتيجة لقراءاته المستمرة في الموسوعات الأدبية الأصيلة ودواوين الشعراء المطبوعين فانطبعت في نفسه أساليب الفصحاء من قدامى الأدباء ومعاصريه من الشعراء مع جزالة اللفظ ، وقوة الأسر وسلامة المبنى ، وفخامة المعاني وإحكام القوافي ، كما تشيع في شعر أحمد محرم الحكمة التي أفادها من تجاربه ومن تأمله في الأحداث وأعمال الناس وتقلب الزمان وهذه الحكمة تأتي في أشعاره مطبوعة غير متكلفة ، كما أن أكثر أغراضه الشعرية التي عالجها الشعر الوطني الذي تحدث فيه كثيرا عن عاطفته الوطنية التي تشبعت بها نفسه وغاض بها حسه ، وكانت له جولات في عالم السياسة وفي الحياة الحزبية التي خالطها كما أجاد أحمد محرم في شعر العقيدة الذي أبدع فيه كل الإبداع ، وكان فيه إماما لمعاصريه فيما بثه من آيات الإيمان والحث على الاعتصام بعبادته والتأدب بآدابه . وجعل ذلك أهم الأسباب في بناء الوطن وتربية أبنائه .

وإلى جانب هذين الغرضين الواسعين عالج الشعر الاجتماعي الذي وصف فيه كثيرا من الأدواء التي مزقت الأمة وعوقت سيرها في طريق الحضارة إلى جانب الشعر العاطفي الذي عبر فيه عن عاطفة الحب الصادقة الذي عاناه في الحلقة

الأخيرة من سلسلة حياته ، وكذلك الشعر الذى شرح فيه عواطفه الخاصة نحو أسرته ونحو مجتمع العروبة والإسلام .

لهذا وغيره عدّه الأدباء فى الطبقة الأولى من شعراء العصر وسلكوه فى صف شوقى وحافظ ومطران .

وقد توفى عام ١٩٤٥م بعد أن خلف للمكتبة العربية ديوان شعر طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٠٨م ، والثانى سنة ١٩١٠م ، وطبع شعره الإسلامى بعنوان : "ديوان مجد الإسلام أو "الإلياذة الاسلامية" سنة ١٩٦٣م فى مجلد ضخم يبلغ أكثر من خمسين وأربعمائة صفحة .

راجع : عن أحمد محرم : خمسة من شعراء الوطنية إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الأعلام الشرقية لزكى مجاهد ، مشاهير شعراء العصر لأحمد عبيد ، أحمد محرم شاعر العروبة والإسلام للدكتور / محمد إبراهيم الجيوشى .

ثالثا : معانى الكلمات :

١ - العميد : لقب كان يطلق على ممثل بريطانيا فى مصر ،
الرماة : جمع رام وهو من رمى السهم ليصيب هدفا .

٢ - الوئيد : البطئ فى سيره المثقل بالأحمال .

٣ - مسيح الهند : إشارة إلى المعتمد البريطانى الذى نقل من الهند إلى مصر ، يشق عليك : يصعب عليك قيادته وحكمه .

٤ ـ تتألب الأحزاب : تجتمع وتحتشد ، شتى : متفرقة مختلفة ٠

٥ ـ تداعوا : دعا بعضهم بعضا ٠

٦ ـ أسلابه : الأسلاب جمع سلب وهو ما يؤخذ من المهزوم بعد المعركة ، تزجى إليهم : تساق اليهم ٠

٧ ـ التخاذل : خذل بعضهم بعضا ولم ينصره ، أعوز ماترى : أعوزه المطلوب أعجزه وصعب عليه ٠

٨ ـ يبيد : يزول ويهلك ٠

٩ ـ كرومر : اسم المندوب البريطاني وفى عهده وقعت حادثة دنشواى إحدى قرى محافظة المنوفية سنة ١٩٠٦م ٠

١٠ ـ تميد : تهوى وتسقط ٠

١١ ـ يهدر : يصوت بشدة والمراد يرفع صوته بالتهديد ٠
مقالته : يشير إلى خطبة كرومر سنة ١٩٠٧م قبل رحيله عن مصر وقد توعد فيها المصريين ببقاء الاحتلال ٠

١٢ ـ القارعة : الداهية ، اشتفت الكبود : ارتاحت الأكباد وهى كناية عن ارتياح المصريين لرحيله عن مصر ٠

١٣ ـ صدعنا ركنه : هدمناه ، انقض البناء : تداعى وسقط ٠

١٤ ـ صرح مشيد : بناء عال محكم ٠

١٥ ـ القعود : جمع قاعد وهو الضعيف المتخاذل عن الكفاح ٠

١٦ ـ الذمم : جمع ذمة ، وهى العهد ، المصونة : المحفوظة التى لم تضعف ٠

++++++++

رابعا : المعانى والأفكار :

أ - تبدأ القصيدة بهذا الإنكار المشوب بالسخرية للسؤال الذى تردد فى مصر مستفهما عما عسى أن يكون المعتمد البريطانى الجديد قد حمل معه إليها من أساليب السياسة وهو سؤال لا يرى الشاعر وجها له ، ومصر قد ابتليت بالعمداء البريطانيين واحدا بعد الآخر ، دون أن تتغير سياسة الاستعمار ، فأى جديد يمكن أن يحمله هذا العميد ، فما هو إلا ممثل للغاصبين ، منفذ لسياستهم التى لا تتغير ولا تتبدل ، فلا جديد فيها ، وإنما هو السهم الذى عرفته مصر قديما من رماتها ، وجرب الشعب - الذى وئدت حقوقه - أثره المدمر ، إذا كان العميد الجديد قد حاول أن يخدع الهنود بمظهره الزائف ، ودعوى المحبة والسلام التى تستر خلفها ، ليستر وراءه مطامع الاستعمار ، فإن الشعب المصرى قد فهم لغته ، ولن ينخدع به أو يخضع لأساليبه .

ويعلم الشاعر الحر أن العملاء البريطانيين قد دأبوا على التعامل مع بعض أدعياء الزعامة فينا ، فيواجه العميد الجديد بإعلان عبث هذا التعامل معهم ، فما زعامتهم إلا دعوة باطلة يبتغون بها النفع لأشخاصهم ، وتحقيق مصالحهم الحزبية على حساب المصلحة العامة للأمة ، ويا ضيعة البلاد إذا ابتليت بزعامة نفعية وصولية لا ترعى حرية الوطن وحق الشعب .

كما يسجل الشاعر رأيه فى فتنة الأحزاب التى أعقبت ثورة ١٩١٩م بهذه السخرية المرة من الصراع الحزبى ، إذ يضج ميدانه بالصواعق والرعود ، ثم ينكشف الغبار بعد الكر والفر ، فإذا الوطن الشهيد هو الضحية ، وإذا السهام قد تكاثرت عليه من أيدى الذين يدعون الزعامة فيه ، ويتداعون لخوض المعركة دفاعا عنه وتأمينا لسلامته ، فإذا هم بعد أن صالوا وجالوا يتوزعون الأسلاب والغنائم فيما بينهم ، ويحتفل الغانمون منهم بعيد الكسب المشئوم فى مأتم الوطن . فيا ضيعة أمل الشعب فى السيادة إذا ساد التخاذل فمزق وفرق الصفوف .

ب — وفى المجموعة الثانية من الأبيات يستأنف الشاعر خطابه إلى عميد الغاصبين (جورج لويد) فيخبره بأن مصر خالدة تحرسها عناية الله ، ويبشره بالخيبة والخذلان ، ويذكره بمصائر غاصبين قبله تتابعوا على أرض الكنانة ثم بادوا جميعا مهما بلغ جبروتهم وبقيت هى خالدة ، ثم يقف به عند تجربة الاستعمار البريطانى فى أرض الكنانة التى يذود عنها الواحد القهار ، ويدفع عنها خطر جنود قهروا شعوبا أخرى ، ويتلو الشاعر على عميد الغاصبين صفحات سوداء من كتاب الاحتلال البريطانى البغيض فيذكره ببطش سلفه (كرومر) الطاغية واستهانة جنوده بأرواح الأبرياء حين طافوا بالبلاد ونشروا فيها الفساد ولم يفرقوا بين صيد الحمام وصيد أرواح الأبرياء ، ويضع أمامه أحداث تلك القرية المسالمة

التى بعث جنوده فيها الرعب والفزع حتى كادت تميد جوانبها بأهليها ، وحتى رفعت صوتها تصوخ من هول الآلام دون أن تجد من ينقذها ، أو يأخذ بيدها .

ثم يستمر فى تذكيره بطغيان (كرومر) وتهديده لمصر فى خطبته عند رحيله سنة ١٩٠٧م التى توعد فيها المصريين ببقاء الاحتلال الإنجليزى ويقول له : لقد رحل عن مصر بعد فظائع دنشواى وثورة الشعب ضده ، فزال عهده وارتاح المصريون لرحيله ، لقد قضينا عليه ورميناه بداهية حطمت كبرياءه وزلزلت عرش دولته ، وطهرنا أرضنا منه وظلت مصر خالدة تحرسها عناية الله .

جـ — وفى المقطع الأخير من الأبيات ينتقل الشاعر إلى الحديث عن شعب مصر المناضل ويفتخر بشجاعته فيقول : نحن شعب يؤمن بحب وطنه ويؤدى واجبه فى الدفاع عنه ، إذا تخاذل الضعفاء ، وقعدوا عن الكفاح ، ونحن شجعان نواجه الموت إذا جبن الأبطال وأعرضوا عن القتال ، نحمى مصر ونصونها وقت الشدائد ، ونضحى بأرواحنا فى سبيلها وهذا عهد نقطعه على أنفسنا ونحافظ على الوفاء به ، فكيف نخشى تهديد كرومر أو نلين أمام خداع لويد ؟ .

خامسا : الدراسة الفنية : التعبير :

أ - هذه القصيدة من الشعر الوطني الحماسي الذي ينعى على القيادات السياسية في مصر انحرافها وخضوعها للمستعمر الأجنبي ، ويؤكد سخط الشعب كله على هذا الاستعمار الذي لن يجد من المصريين سوى السخط والكراهية ولن تتوقف مطالبته برحيل هذا الاستعمار البغيض ومؤامراته وشراكه الخادعة ، فشعلة الثورة ضده متقدة ولن يستطيع إطفاءها ، وفي مثل هذا المعنى قال شوقي في قصيدته " في ذكرى مصطفى كامل " حيث أخذ يندد ببعض الزعماء الذين شغلهم الصراع الحزبي عن قضية الوطن فانحرفت القيادة الثورية ، إلى زعامة تحترف السياسة لحساب الحزبية ، فيقول :

إنّما الميْتُ مَنْ مشى ميِّتَ الخَيْرِ والخبَرْ
مَنْ إذا عَاش لَمْ يُفِدْ وإذا مَاتَ لم يَضِرْ
ليس في الجَاهِ والغِنَى منه ظِلٌّ ولا ثمرْ
قبُحَ العِزُ في القُصُورِ إذا ذَلَّتِ القَصَرْ

وقد ألقيت هذه القصيدة في الاحتفال الذي أقيم تمجيدا لذكرى مصطفى كامل في فبراير سنة ١٩٢٦م (توفي مصطفى

كامل ١٩٠٨م) وهو نفس المعنى الذى نظم فيه أحمد محرم هذه القصيدة ، وإذا كان شوقى يعبر عن رأى قائد وجدانى للأمة ، وهو مصطفى كامل ، فإن أحمد محرم يعبر عن رأى الشعب ، ويسجل صوت شاعر من الملايين الذين وقفوا يشاهدون ما يجرى فوق المسرح السياسى ، وهو فيها حر الضمير لا يبالى جبروت الطغاة ، ولا غضبة الأحزاب .

كما عبر حافظ إبراهيم كذلك ـ فى قصيدته "صوت مصر" ـ عن حب مصر الراسخ فى أعماق أبنائها وكان هذا الحب عاصما لها فى أحلك المحن وحماها من التخاذل والاستسلام وأمدّها بطاقة عجيبة من الإرادة والصبر ، يقول حافظ إبراهيم متحدثا بلسان مصر :

مَا رَمَانِى رَامٍ وَرَاحَ سَلِيماً
مِنْ قَدِيمٍ عِنَايَةُ اللَّهِ جُنْدِى
كَمْ بَغَتْ دولةٌ علىَّ وجَارَتْ
ثُمَّ زَالَتْ وتلك عقبى التَّعَدِّى
إنَّنى حرةٌ كَسَرْتُ قيُودِى
رغم رُقْبى العِدَا وقَطَّعْتُ قَيْدِى

فحافظ ، ومحرم ، يتحدثان عن العناية والقدرة الإلهية التى تقف بجانب شعب مصر فى جهاده .

وليس بعجيب أن تتوارد خواطر الشعراء على هذا المعنى الشعبى الصميم مع اختلاف أساليبهم فى التعبير ، فحافظ

يعلن على لسان مصر أن عناية الله كانت جندها فى صراعها مع أعدائها ، ومحرم يواجه عهد الغاصبين بالواقع التاريخى الذى يشهد بعقم محاولات سبقت ، باد فيها الغاصبون وأرض الكنانة لا تبيد ، فالنص تجربة شعرية صادقة وفى المقطع الأول من هذه الأبيات نجد الشاعر يأخذ فى السخرية والتنديد بالمعتمد البريطانى الجديد ، فيسأل سؤال إنكار وسخرية عما ينتظره أبناء مصر وأحزابها من هذا الرامى الذى لم يأت إلا بأسهم جديدة وحيل وألاعيب أخرى ، فليس عند المستعمر سوى ذلك ، فهذا العميد الجديد دائرة فى سلسلة ممتدة تطوق أعناق أبناء مصر ، وتخنق حريتها .

وقد أجاد الشاعر إجادة تامة فى التعبير عن فكرته فاستعمل الاستفهام فى الشطر الأول من البيت الأول ليدل به على الدهشة والاستغراب والسخرية مما كان من أحزاب مصر الذين هرعوا إلى المعتمد الجديد يسألونه عن سياسته وعن أفكاره وتصوراته المستقبلية ، ثم جاء الاستفهام الثانى فى نهاية البيت نفسه لينفى به أنه لا يحمل سوى قيود جديدة وطمنات أخرى للحرية والكرامة ، فجاء هذا الاستفهام بمثابة لطمة شديدة الوقع على وجوه هؤلاء المتخاذلين الحريصين على مصالحهم الشخصية ، فالاستفهام أشد تأثيرا فى النفس لذلك آثره الشاعر وكان موفقا كل التوفيق فى اختياره وبدء قصيدته به .

ثم يقرر أن هذا المعتمد ما هو إلا سهم من الأسهم التي عرفتها مصر للمستعمر وجرّب وقعه وألمه ، ذلك الشعب الذى تثاقلت خطواته وخفقت حركته نتيجة القيود والأغلال التى قيد بها ومرارة الكفاح الذى خاضه ضد ذلك المستعمر الذى لا يرحم ولا تلين له قناة وما زالت طعناته تتزايد وتتوالى على ظهر هذا الشعب المكافح .

وقد وفق الشاعر أيما توفيق فى اختيار ألفاظه المعبرة عن هذه المعانى ، فالمستعمر سهم مسلط على رقاب أبناء مصر وهو الذى جرب الشعب وقعه ، وما أجمل وصف الشعب بأنه شعب وئيد ليوضح كم عانى هذا الشعب حتى أصبح وئيدا ، أى مدفونا حيا فى التراب . مكتيا بذلك عن جحود حقه فى الحرية والحياة الكريمة لأن المستعمر جبار طاغ لا يعرف سوى صلحته .

ثم يتوجه الشاعر إلى ذلك المعتمد الجديد الذى لجأ إلى حيلة أخرى من حيل الخداع ونصب الشراك لفريسته فلبس ملابس المسيح وأخذ يدعو إلى السلم والمسالمة وهو خادع كاذب فى كل ما فعل وما يدعى ، فأخذ يكشف حيله وألاعيبه ويهاجم فى صراحة لا خوف فيها ولا ممالأة ويقول له : إذا كنت قد خدعت أبناء الهند بما تستتر خلفه من أقنعة فإن شعب مصر لا تنطلى عليه هذه الحيل ، كما يجب عليه ألا يغتر بممالأة بعض الزعماء والساسة ، فهم أصحاب مصالح ذاتية أعمت عيونهم وجعلتهم يجرون خلف شهواتهم وأطماعهم .

وقد جاءت الألفاظ والعبارات دقيقة معبرة عن هـذه المعانى موحية بالجو النفسى ، ومن ذلك قوله : " مسيح الهند" التى توحى بالسخرية والاستهزاء من ألاعيبه ، "يشق" التى توحى بالصمود واستمرار المقاومة ، ووصف الشعب بالرشيد يدل على أنه لم يسلم قيادة لهؤلاء الزعماء المنحرفين ، وإنما يملك الشعب زمام أمره ، ووصف الزعامة بأنها "دعوى" لبيان زيفها وانحرافها وعدم جدواها .

ثم يتألم الشاعر أشد الألم لما كان من أمر هـؤلاء المتكالبين على باب المعتمد البريطانى من أصحاب المناصب والزعامة ، يجرون خلفها ونسوا وطنهم ، وأداروا ظهورهم لمطالب الشعب ومناداته بالحرية ، فالبلاد تصاب فى مقتل إذا ابتليت بهؤلاء الباحثين عن الزعامة ،ثم يسأل فى سخرية واستنكار ما هذا العبث الذى نراه من هؤلاء الأدعياء والذى يذكرنا بفتنة الأحزاب التى أعقبت ثورة ١٩١٩م وصراعها الحزبى المقيت وما كان من نتائجه الوخيمة حيث كان الوطن هو الضحية لهذا الانقسام ، وإذا السهام تتوالى عليه من أيدى هؤلاء الذين يدعون الزعامة ، فوزعت فرقا وأحزابا ومزقت وحدته وفرقت كلمته .

وقد سيطرت على الشاعر فى هذه الأبيات عاطفة الألم والشجن ، وقد ظهر أثرها فى انتقاء الألفاظ والعبارات مثل : الصواعق ، والرعود ، وتداعوا ، والوطن هو الشهيد ، ومضت أسلابه عليهم ، ومأتم الوطن عيد عندهم .

ب ـ فاذا ما انتقلنا الى المجموعة الثانية من الأبيات فان الشاعر يؤكد فيها أن مصر خالدة وأعداءها زائلون ولهذا تجيش عاطفة بالسخط على الاستعمار ، فيبدأ الأبيات ببيت لاذع " عميد الغاصبين " وفى ذلك مواجهة جريئة تدل على صلابة الشعب المصرى الذى يتحدث الشاعر بلسانه ، وقوله: " نزلت أرضا " تعبير يوحى بكره أهل هذه الأرض لهذا المستعمر ، فهو لم ينزل بقوم أو بلد ، وفى تكرار " الغاصبين " تهديد للإنجليز بأن مصيرهم الزوال كما زال غيرهم ، والتعبير بالمضارع " يبيد " يفيد الحضور والتجدد ، فكل غاصب قديم أو حديث يبيد ، ومصر لا تبيد ، فالمعنى هنا أقوى مع المضارعة بما يفيد من حضور واستمرار وبما يلقى فى روع عميد الغاصبين من الشعور بعقم مسعاه حين تقرر أن هذا شأن مصر وحالها مع كل غاصب دخيل نزل أرضا يبيد الغاصبون ولا يبيد .

وقوله : " فيذود الواحد القهار " تأكيد لهذا المعنى ودقة فى التعبير حيث يمكن أن يستقيم الوزن بمثل " الخالق الرحمن " ولكنه آثر هذا التعبير لأن الشاعر بفطرته الشعبية أراد أن يصدم جبروت الطغاة الذين سولت لهم نفوسهم أن يمارسوا حقوقا إلهية فيستعبدوا البشر وهم ليسوا إلا عبيدا للإله الواحد ويتسلطوا على الشعوب بالقهر ناسين أن فوقهم قهارا أعظم ، يكسر جبروتهم ويقهر طغيانهم ، كذلك فإن هذا التعبير يوحى بأننا لا نخاف إلا الله الواحد الذى لا إله غيره

وهو القهار الذى ينصرنا على أعدائنا ، كما أن هذا التعبير يتناسق مع قوله بعد ذلك : " قهرت جنودك " فهذا التعبير يجرى فى سياق " الواحد القهار " ، ولذلك كان أجمل من التعبير بجملة أخرى مثل " قتلت لصوصك " فالواحد القهار أقوى من جنودك القاهرين . وقد جاء هذا التعبير " الواحد القهار " تعليلا وتدليلا لقوله : " يبيد الغاصبون ولا تبيد " .

وقوله : " وما أرادوا " يفيد الشمول فهم يريدون السلب والنهب والسيطرة والقتل .... و " البطش الشديد " إيحاء بجبروت (كرومر) واستبداده وأن هذا الجبروت هو وسيلتهم وتحقيق ما أرادوا . وقوله : " تطوف جنوده فتصيد منا " توضيح للبيت قبله وإيحاء باستهانة المستعمر بأرواح الشعب واستهتارهم ووحشيتهم ، وقد آثر الشاعر كلمة " تصيد " على " تقتل " مثلا لإبراز حالة المستعمر النفسية وتلذذه بالقتل كالصائد حين يمارس هوايته فى صيد الحمام ، كما أن كلمة " نصيد " توحى ببشاعة حادثة دنشواى ، وكلمة " كادت " توحى بالقرب ، " تضج من العذاب " إيحاء بالهول وظلم المستعمر ، وتكرار العذاب ، والنفى بلا فى البيت السادس من هذه المجموعة يوحى بهول التنكيل والحصار المحكم وعجز الحكومة عن حماية الشعب حينئذ . والبيت السابع كله يوحى بغطرسة كرومر وتهديده القوى ، وذلك يمهد لما بعده ، " أخذنا بقارعة " ، فعلى الرغم من كل طغيان .

لم يغفل من عقاب الشعب ، ووصف القارعة بأنها " ألحتعليه " يوحى باستمرار الكفاح والعزم والتصميم على تحطيم الطغـاة ، ولذلك جاء موسيقا الألفاظ صاخبة عنيفة وتشعر بالراحـة النفسية بعد الانتقام من الظالم فى قوله " اشتفت الكبـود " وفى قوله : " وزلزل للأذى صرح مشيد " إيحاء بمـدى ما وصل إليه الإيذاء من وحشية وعنف وقسوة ·

والبيتان الأخيران تفصيل لكيفية زوال هذا المستعمر ، والتعبير بهذه الأفعال : " صدعنا ، انقض ، ذاب ، هـوى ، زلزل " يلائم قوة الشعب وحرصه على التخلص من هذا المستعمر البغيض ·

جـ ـ أما المجموعة الثالثة من الأبيات فإن الشاعر يتحدث فيها عن شجاعة شعب مصر وكفاحه وتضحياته ، وقد اختـار الألفاظ والتعبيرات التى تلائم هذه الإشارة ، وذلك الفخر · ترى ذلك واضحا فى قوله " ونحن القائمون بحق مصر " ، فلن يدافع عن الوطن إلا بنوه ، كما تسيطر على الشاعر عاطفة الفخر والاعتزاز بالشعب المصرى ولذلك جاءت ألفاظه وتعبيراتـه معبرة عن هذه المشاعر مثل : " نحن " وتكرارها يؤكد الفخـر و " نحن القائمون " ، و " نحن المقبلون " ، وكلاهما أسلـوب قصر يوحى باعتماد الشعب على نفسه ، وثقته بقدرته علـى نيل حقوقه والدفاع عن وطنه ، ولذلك قدم الجار والمجـرور " بأنفسنا " على الفعل " نجود " لتأكيد التضحية بأغلـى شئ ، وقوله : " هى الذمم " أسلوب قصر أيضا يوحى بالحرص

على الوفاء بالعهد التى قطعها الشعب على نفسه فى الأبيات الثلاثة السابقة . والشطر الأخير من البيت الرابع استفهام للتعجب يتضمن التهديد للمستعمرين على اختلاف شخصياتهم مثل : "كرومر" أو "لويد" فطبيعة الاستعمار واحدة ، وان تغيرت الأسماء ، وسياسة الغاشمة لا جديد فيها ، كما أن مقاومة الشعب له دائمة فى عهد "لويد" كما كانت فى عهده سابقة ، وسيلقى الجديد كما لقى القديم من فشل ورحيل غير مأسوف عليه .

سادسا : التصوير :

أ ـ كان أحمد محرم حرّ الرأى ، أبيا ، لا يبالى ما قد يصيبه من متاعب فى سبيل التعبير عن رأيه الحر ، قوى الإيمان بوطنه وبحقه فى الحرية والكرامة ، معتزا بنفسه ، ولهذا كان هذا النص وليد تجربة شعورية صادقة فاض بها وجدانه ، وامتلأ بها ضميره ، فهو فى أسى ولوعة نفس من جراء ما يرى ويسمع : زعماء مصر أرباب السياسة يتكالبون على باب المعتمد البريطانى الذى جاءهم لينفذ حلقة جديدة من حلقات البطش بالشعب الهادئ الوديع ويتظاهر بمسوح المسيح ، ولكنه كسابقه وأشد ، ومع ذلك ينسى هؤلاء وطنهم وواجباتهم نحوه ، ويسرعون إليه الخُطَا ليعرف كل منهم دوره ، وما ينتظره من جاه ومكانة ، ولهذا فهو يصب عليهم جام غضبه ويحذر من مغبة السياسة الاستعمارية ويندد بانقسام

زعماء الأمة ، كما يهدد الإنجليز ويذكرهم بمأساة دنشواى التى وقعت فى عهد كرومر ، ويعلن إصرار الشعب على نيل حقوقه وصموده للكفاح حتى تحرر البلاد .

وكان لعاطفة الشاعر الحزينة الثائرة الحاقدة على الاستعمار الغاصبة على رجال الأحزاب أثرها فى التعبير والتصور .

ففى البيت الأول استعارة تصريحية فى كلمة " الرماة " حيث جعل جنود الاستعمار الإنجليزى ومندوبيهم رماة ، وفى البيت الثانى كنى عن الشعب المثقل بهموم الاستعمار وئيد ، أى كأنه مدفون حيا فى التراب ، كما جعل المارشال " لويد " مسيح الهند ففى هذا اللفظ استعارة تصريحية وفى قوله : " شعبا يشق عليك " كناية عن مقاومة الشعب وصلابته وعدم استسلامه ، وجاء الاستفهام فى البيت الثامن " لمن تتألب الأحزاب .. " للنفى وإظهار الدهشة والعجب من صنيع هذه الأحزاب ، وانقسامها حتى كان الوطن هو ضحية هذا الانقسام .

وما أجمل قوله " أسلابه " التى أراد بها خيرات بلاده ، التى أخذت عنوة ، وقهرا من أبناء الوطن ، ونعم المستعمر بها وأتباعه . كما كان الشاعر موفقا فى تشبيه أحزان الأمة بسبب تفرق أبنائها وتحكم الاستعمار فيها بأنها عيد عند هذا المستعمر الذى يسعد بانقسام أبناء أمتنا ، وتوزع أهوائهم .

ثم يأتى البيت الحادى عشر ليحمل حكمة ويقرر حقيقـــة لا خلاف حولها ، فليس هناك حرية لشعب سنخاذ ل متفـــرق الكلمة مهيض الجانب .

وفى المجموعة الثانية من الأبيات نجد الشاعر يكنى عـــن " جورج لويد " بأنه (عميد الغاصبين) . وفى قوله : " يـذود الواحد القهار " مجاز مرسل علاقته السببية ، فتأييد الله للمؤمنين بالقوة الروحية سبب فى إحراز النصر .

وفى قوله : " لقومك " ما أرادوا " كناية عن السيطرة ونشـــر الرعب فى أنحاء البلاد ، وقوله : " تصيدنا " استعارة مكنيـة فقد شبه الشعب البرئ بفريسة تصطاد ، وفيها إيحــــاء بوحشية المستعمرين الذين لا يفرقون بين الإنسان والطير .

وقوله : " كادت جوانبها تميد " كناية عن شدة التنكيـل والتعذيب ، و "تضج من العذاب " مجاز مرسل علاقتـــــه المحلية ، فقد أطلق المحل (دنشواى) وجعلها تضج مجازا عن أهلها . وقوله : " يهدر فى مقالته " استعارة مكنيـــــــة حيث شبه كرومر فى طغيانه ببحر أو جمل هادر ، وهى توحى بعنف ثورته وشدة غضبه ، و " اشتفت الكبـــود " كناية عن ارتياح النفوس ، فقد أطلق اللفظ وأراد لازم معناه ، وفى قوله : " صـد عنا ركننه " استعارة مكنية حيث جعل كرومر فى طغيانه بناء ضخما مبنيا بالصخر والحديد فهدمناه بإيماننا وحطمناه بكفاحنا .

وفى كلمتى " جبل ، صرح " استعارتان تصريحيتان ، فقد شبه كومر مرة بالجبل العالى ، ومرة بالصرح المشيد ، وحذف المشبه وصرح بالمشبه به .

أما فى المجموعة الثالثة والأخيرة من الأبيات ، فإننا نجد البيت الأول منها كناية عن الصمود . وقوله فى البيت التالى : " ونحن المقبلون على المنايا " كناية أيضا عن الشجاعة وقوله : " إذا الأبطال كان لهم صدود " كناية عن شدة الخطر الذى يهرب منه الأبطال ، وقوله " نضن بمصر " استعارة مكنية ، و " بأنفسنا نجود " استعارة مكنية .

كما نجد الشاعر قد استعان ببعض المحسنات البديعية غير المتكلفة مثل : الطباق بين " يبيد ، ولا تبيد " و " يذود وقهرت " ، والمقابلة فى البيت الثانى والثالث والرابع من المجموعة الثانية ، فالشطر الأول فى كل بيت يقابله الشطر الثانى ، وكذا الأبيات الثلاثة الأولى من المجموعة الثالثة ، فى كل منها مقابلة بين الشطر الأول والشطر الثانى فى كل بيت .

سابعا : نظرة عامة فى الأبيات :

أ — هذه القصيدة التى درسنا بعض أبياتها من الوثائق الأدبية المؤرخة للحركة الوطنية بما تقدم لنا من وميض التحفز الذى بلغ ذروة احتدامه فى حريق القاهرة سنة ١٩٥٢م فهى قصيدة من شعر التحرير والحركات الاستقلالية ، وهى

صوت من أصوات الحركة الشعبية التى ارتفعت فى تلك الفترة فى مواجهة الإرهاب والحنزيرة البغيضة ، وقد جاءت أفكار الشاعر واضحة مترابطة ، فقد بدأها بذلك الإنكار الساخر من ذلك : السؤال الذى أخذ يتردد فى أنحاء مصر عند قدوم المعتمد البريطانى الجديد عما يحمله معه إليها من أساليب السياسة ، ثم يقرر أن أساليب الاستعمار لا تتغير ولا يحيد عنها ممثلوه ، فلا جديد عندهم سوى توجيه الضربات للشعب الهادىء الوديع الذى سلبت حريته ، واغتصبت حقوقه ثم ينعى على زعماء الأحزاب المصرية فى ذلك الوقت تكالبهم على بيت المعتمد البريطانى وتدافعهم لتقديم مظاهر الطاعة والولاء متناسين واجباتهم نحو وطنهم ، لهذا فإن الشاعر يرفض زعامتهم ويذكر أنهم أدعياء للزعامة ، فزعامتهم باطلة لأنهم يبتغون بها النفع لأشخاصهم ولا يهمهم أمر شعبهم وما يتطلبه وطنهم من حفاظ على حريته والسعى إلى تخليصه من براثن أعدائه .

ثم يأخذ فى تهديد الغاصبين وعميدهم الجديد ، ويثبت له بالبراهين القاطعة أن مصر باقية ، لأن عناية الله تحرسها ، ويعرض أمامه صفحات من تاريخهم الأسود فى دنشواى ، ثم يشيد بالشعب المصرى المناضل الذى صمد فى جهاده حتى خرج كرومر من البلاد مشيعا باللعنات .

وفى الأبيات الأخيرة افتخر بشجاعة الشعب وتضحياته فى سبيل مصر .

وبهذا الترابط الواضح بين الأفكار تحققت للنص وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى ، وقد اعتمد الشاعر فى صوره على الخيال الجزئى من تشبيه استعارة وكناية ومجاز ، وكان يؤلف بينها فتأتى ملائمة للأجواء النفسية وإن لم يكن فيها تجديد أو ابتكار .

وموسيقى النص ظاهرة فى الوزن والقافية ، وداخلية خفية : نابعة من حسن انتقاء الألفاظ وجمال تنسيقها وترابط الأفكار وروعة التصوير ، وواضحة فى المحسنات البديعية غير المتكلفة ، " قد ذكرناها فى موضوع التصوير " .

ب ـ وأسلوب أحمد محرم أسلوب يمتاز بوضوح أفكاره وجزالة ألفاظه وملاءمتها للمعانى ، وللجو النفسى ، كما أن ألفاظه قوية محكمة الصياغة ، فهو من مدرسة المحافظين فى الشعر التى بدأها البارودى .

ومن ملامح هذه المدرسة التزام الوزن والقافية الموحدة والحرص على اللفظ العربى الأصيل ، والخيال الجزئى المتأثر بالبيئة القديمة ، ومع ذلك فإننا نجد فى هذه القصيدة بعض ملامح الجديد ، وتتمثل فى اختيار عنوان يوحى بمضمون القصيدة ، وتدور حوله أفكارها . بالإضافة إلى وحدة الجو النفسى والصدق فى التجربة الشعورية ، فقد عبر الشاعر عن انفعالاته ومشاعره الحقيقية دون زيف أو مغالاة .

أما ملامح شخصية أحمد محرم فى هذه القصيدة فهى وطنيته الصادقة وحرية رأيه وشجاعته وجرأته فى إبداء رأيه ، لا يخشى المستعمر وأعوانه فى نقده ، مؤمن بربه ، وأنه ناصر المظلومين ، لا يتخلى عنهم أو يضيعهم .

* * *

النص الخامس

العودة : لابراهيم ناجي

(١)

هَذِهِ الكَعْبَةُ كُنَّا طَائِفِيهَا
والمصلِّينَ صَباحًا ومَسَاءْ(١)
كم سَجَدْنَا وعَبَدْنَا الحُسْنَ فيها
كيف باللهِ رَجَعْنَا غُرَبَاءْ
رَفْرَفَ القلبُ بِقلبٍ كالذَّبيح
وأنا أهتِفُ يا قلبي اتَّئِدْ(٢)
فَيُجِيبُ الدَّمْعُ والماضي الجَّرِيح
لِمَ عُدْنَا ؟ ليتَ أنَّا لَمْ نَعُدْ
لِمَ عُدْنَا ؟ أو لم نَطْوِ الغَرام
وَفرغْنَا من حَنينٍ وأَلَمْ
ورضينَا بِسُكونٍ وسَلام
وانتهيْنَا لِفَراغٍ كالعَدَمْ

(٢)

موطنُ الحُسْنِ ثوى فيه السَّأَمْ
وسرتْ أنفاسُه في جَوِّهِ(٣)
وأناخَ اللَّيْلُ فيه وجَثَمْ
وجرتْ أَشباحُهُ في بَهْوِهِ(٤)

وَالبِلى أبصرتُه رأىَ العيَانِ
وَيداهُ تَنسجانِ العَنْكَبُوتْ(٥)
صِحْتُ يا ويْحَكَ تبْدُو فى مكَانْ
كلُّ شئٍ فيه حيٌّ لا يَمُوتْ(٦)
كلُّ شئٍ من سُرورٍ وحَزنْ
والليالى من بهيجٍ وشجى(٧)
وأنا أسْمَعُ أقدامَ الزَّمَنْ
وخُطى الوِحْدَةِ فوقَ الدَّرَج(٨)

أولا : التعريف بالشاعر :

إبراهيم أحمد ناجى القصبجى ، ولد بالقاهرة فى ٤ من مارس سنة ١٨٩٦م ، وكان أبوه يعمل بمصلحة البرق حتى وصل إلى سكرتير عام بها ، دخل المدرسة الابتدائية والثانوية وكان متفوقا فى دراسته ، وقد وجد فى والده الذى كان ينزع إلى قراءة الآثار الأدبية فى العربية والإنجليزية موجها ممتازا وأقبل على مكتبة أبيه يتزود منها ويقرأ فيها ، ما راق له ، ودخل كلية الطب سنة ١٩١٦م وتخرج منها سنة ١٩٢٣م ثم عمل طبيبا فى مستشفيات سوهاج والمنيا والمنصورة ثم القاهرة حتى وصل إلى منصب مدير القسم الطبى بوزارة الأوقاف ، ثم طلب إحالته إلى المعاش فى أواخر عام ١٩٥٢م حيث أراد أن يتفرغ لعيادته الخاصة بشبرا ، إلا أن المنية عاجلته فى ٢٤ من مارس

سنة ١٩٥٢م وكان مغرما بالأدب مشغوفا به حتى نظم الشعر وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وظل يغذى مواهبه الأدبية بالقراءة فى اللغة الإنجليزية والفرنسية والعربية ، وقد خاض فى بداية حياته تجربة عاطفية ، فاشلة ، ولذلك لازمه آثارها طوال حياته ، مما طبع نفسه بالحزن والكآبة ، وإن غلف ذلك بفكاهته الخفيفة التى عرف بها وروحه المرحة ، وكان ينشر شعره فى المجلات والصحف اليومية حتى صدرت مجلة (أبوللو) فأخذ ينشر فيها أشعاره ثم أخرج أول دواوينه الشعرية " وراء الغمام " سنة ١٩٣٤م ، ثم نشر ديوانه الثانى " ليالى القاهرة " سنة ١٩٥١م ، وبعد وفاته نشرت له دار المعارف بمصر ديوانه الثالث " الطائر الجريح " سنة ١٩٥٣م ، ثم جمعت وزارة الثقافة نتاجه الشعرى ونشرته فى ديوان واحد ظهر سنة ١٩٦١م .

كما كتب ناجى وترجم بعض القصص والمسرحيات مثل : " مدينة الأحلام " ، و " الحرمان " ، و " النوافذ المغلقة " ونشر عدة مقالات فى الفلسفة والنقد والاجتماع ، وأصدر بعضها فى كتب ، كما نشر له بعد وفاته ترجمة ودراسة لديوان " أزهار الشر " للشاعر الفرنسى (شارل بودلير) .

ويمثل ناجى جماعة أبوللو أدق تمثيل ، فقد انضم إليها منذ نشأتها وعمل وكيلا لها ونادى مع مؤسس هذه الجماعة الدكتور / أحمد زكى أبو شادى ، بالدعوة الجديدة التى

أرادت للشعر أن ينطلق من أغلاله وأن ينفك من قيوده ، بحيث يكون شعرا وجدانيا يترجم عن ذات قائله ويصور وجدانه ومشاعره ، فقد كانت هذه الجماعة تحمل رسالة الشعر الجديد حيث كان أعضاؤها جميعا يؤمنون بالرومانسية المذهبية نتيجة عوامل كثيرة متشابكة منها الظروف السياسية القاسية فى الفترة التى رافقت قيام أبوللو وحياتهم الخاصة المتقاربة واطلاعهم على الثقافة الغربية وإعجابهم المتزايد بالاتجاه الرومانسى فيها .

راجع عنه : ناجى - حياته وشعره ، بلابل من الشرق لصالح جودت ، الشعر المصرى بعد شوقى (الحلقة الثانية) للدكتور / محمد مندور.

ثانيا : معانى الكلمات :

١ - الكعبة : المراد بها هنا البيت الذى عاش فيه أحبابه والذى كان يزوره ويعتز به .
٢ - رفرف القلب : خفق واضطرب ، اتئد : تمهل وخفف من اضطرابك وخفقاتك .
٣ - ثوى فى المكان وثوى به : أقام به .
٤ - أناخ : نزل وأقام ، والمراد أن الدهشة حلت بالمكان وخيمت عليه ، جثم : لزم مكانه والتصق به ، بهوه : ساحته .

٥ ـ البلى : الفناء والخراب والمراد : خلو الدار من الأنس والبهجة .

٦ ـ ويحك : كلمة تدل على التوجع والتعجب من فعل البلى بدار أحبابه .

٧ ـ البهيج : السارّ ، الشجيّ "بتشديد الياء" : الحزين المشغول البال .

٨ ـ الدرج : السُّلَّم .

ثالثا : المعانى والأفكار :

أ ـ قصيدة العودة تعبير عن موقف عاطفى للشاعر أمام ديار أحبابه بعد أن تغير عهده بها ، فقد عاد الشاعر إلى دار أحبابه بعد غيبة وهجر طويل مدفوعا إلى العودة بحنين غلاب وشوق جارف ، فلم يجد حبيبته ، فقد هجرت الدار وتركتها مع أهلها فوجد الشاعر نفسه غريبا ، والدار موحشة ، فثارت ذكرياته واهتاجت مشاعره وأخذ يعبر عن آلامه ومشاعره الحزينة .

ويسترجع ذكريات الماضى السعيد ويتألم للحاضر الذى يمزق قلبه ، فيقول : هذه الدار التى كانت بالأمس كعبة نحج إليها ونطوف حولها كل صباح ومساء ونقدس فيها الحسن والجمال أصبحنا اليوم أمامها غرباء تلقانا وكأنها لا تعرفنا فما أعجب تصاريف القدر وما أقسى الزمن ... إنها صدمة قاسية على النفس جعلت القلب يخفق مضطربا متألما كأنه

ذبيح يرفرف بجناحيه وأنا أحاول أن أرد إليه السكينة والهدوء لكنه يستغرق في ألمه لا يستجيب لي ، فالأحزان كانت أقوى منا ، ولذلك انسابت دموعي غزيرة وعاودتني ذكريات الماضي التي جرحت قلبي وزادت آلامي ، فتساءلت في إنكار : لم عدنا ؟ وتمنيت أنا لم نعد . حتى لا تتجدد الأحزان ، وقد استعر فيض الدمع والألم ، معلنا مزيدا من الندم على العودة بعدما طوينا صفحة الغرام ، وفرغنا مما كان يضنينا من حنين ، ويرهقنا من ألم ، ورضينا بما صرنا إليه من راحة اليأس وحياة يسودها السكون والسلام ،وانتهينا إلى فراغ يشبه العدم ، وحياة مجدبة ، لا طعم لها ،ولا جمال فيها .

ب ـ وفي المجموعة الثانية من الأبيات يصور الشاعر ما آل إليه منزل الأحباب فيقول : لقد كان هذا المنزل موطنا للحسن ومعبدا للجمال ، ثم حلت به الوحشة وأقام فيه الملل والكآبة وسرت أنفاس السأم في أرجائه وخيم عليه ليل موحش يبعث في النفس الخوف والرعب وامتلأت ساحته بالأشباح المخيفة ، وعبثت به يد البلى والخراب ، فالفناء مجسم للعين في كل ركن من أركانه حيث نسجت العنكبوت خيوط الكآبة على مرأى مني ، فلم أتمالك نفسي من العجب والدهشة فصحت قائلا للبلى : عجبا لك ؟ كيف تحل بمكان عامر بذكريات حية لا تموت ؟ وكيف تبدو هنا وكل شئ مريس في هذا المكان باق ملء الحياة ، وكل ما في ذكرياتي عنه خالد بمسراته

وأحزانه ، بمباهجه وآلامه التى تركتها هنا ، فأنا أسترجع شريط الماضى وأسمع وقع أقدام الزمن البعيد حيث كنا هنا معا كما أسمع وقع خطوات الدهشة فوق سلم هذا المنزل المهجور اليوم .

رابعا : الدراسة الفنية :

١ ـ التعبير :

أ ـ عاد الشاعر إلى دار محبوبته وعاطفة الشوق والحنين إلى رؤيتها تملأ وجدانه ، ولذلك انتقى الشاعر من الألفاظ والعبارات ما يوحى بعاطفته ويلائم جوه النفسى فيبدأ بالإشارة إلى دار حبيبته باللفظ الذى يدل على التقديس فيقول : " هذه الكعبة " إشارة إلى قربها من قلبه وإيحاء بسمو حبه وقد استرسل فى إحساسه بقدسية المكان وعبر عن ذلك بذكر الطواف والصلاة ، وذكر الصباح والمساء يوحى بدوام الصلة واستغراق الحب لكل وقته ، وقد ساق الحديث بأسلوب الجمع " كنا طائفيها والمصلين ، كم سجدنا وعبدنا ... " ليبين أن التقديس لم يكن منه وحده ، وإنما كان يشاركه من يحب فى هذا التقديس .

والتعبير بـ " كم " الخبرية يدل على الكثرة ، وذكر الحسن يوحى برقة الشاعر وتذوقه للجمال ، وما كاد الشاعر يصل إلى هذا المكان المقدس حتى صدم وهاجت مشاعره وثارت نفسه

لما رأى وشاهد ولذلك جاءت كلماته وعباراته معبرة عن هذا الأسى والألم ، "وكيف بالله رجعنا غرباء ؟ " . وأتى بلفظ الجلالة فى وسط أسلوب الاستفهام ليفيد الاستغاثة والاستعانة بالله ، وكأنه يقول : إن الموقف أقوى من تحملى فأعنى عليه يا رب . وقوله : " كالذبيح " بعد " رفرف القلب " يدل على شدة خفقان قلبه واضطرابه ، وأتى بكلمة : " أهتف " ليدل على فقد سيطرته على قلبه على الرغم من محاولته ذلك . وقد هتف الشاعر بقلبه فلم يجب ، وأجابت الدموع لأنها الوسيلة القريبة للتعبير عن شدة الأسى والألم ، وليدلل على عجز القلب وشدة أساه ، وأفاد قوله : " ليت أنا لم نعد بعد : " لِمَ عدنا " شدة التحسر ، وكرر : " لم عدنا " فى بداية البيت الخامس ليربط بينه وبين سابقه وليؤكد شدة لومه لنفسه وتأنيبها على العودة ، وعرف " الغرام " ليدل على أن هذا الحب كان شائعا ومعروفا بين الناس ونكر " حنين وألم " يفيد ألوان الحنين وأنواع الألم ، والتعبير بقوله : " فرغنا ورضينا" يفيد أن ذلك خارج عن إرادته .

وقوله : " سكون وسلام " يشمل كل ألوانهما ، فهذا ولا شك خير من عذاب الغرام ، وقد فاض تعبير الشاعر عن الإحساس بالغربة والوحشة ليوحى بهذا الألم وشدة وقعه على نفسه مثل : رجعنا غرباء ، الذبيح ، الدمع ، الماضى ، الجريح ، حنين وألم ، وهكذا نجح الشاعر فى نقل مشاعره المتنوعة كما برع فى إجراء الحوار الداخلى الذى جسم الموقف كله .

ب - وفى مجموعة الأبيات الثانية أجمل فى بدايتها الحديث عن دار محبوبته بقوله : " موطن الحسن " ثم فصل ما حدث فى سائر الأبيات وذلك لأن الماضى صار ذكرى والحاضر هو الذى يعيش فيه ، وهو موضوع التجربة .

وقد تحدث عن الماضى فى مطلع القصيدة وأخذ يفصل ما حدث لهذا البيت ونفسه تقطر أسى وألما ، ولهذا جاءت الكلمات والعبارات توضح هذا الأسى ، وتحمل عاطفة الحزن والألم ، فقوله : ثوى فيه السأم " يوحى بالوحشة والانقباض من رؤية هذا المكان ، واختار " سرت " مع الأنفاس و " جوت " مع الأشباح لأن الأنفاس غازات يلائمها سرت ، والأشباح هياكل مادية يناسبها " جرت " كما أن كلمة " فى جوه " وفى " بهوه " كل فى مكانها ، وعبر بقوله " جثم " بعد " أناخ " ليفيد ملازمته المكان ، وشدة الظلام ، وأفاد قوله : " رأى العيان " بعد " أبصرته " تأكيد الرؤيا ، وكأنه شعر بأن البلى لا يرى ، فلزم ذلك تأكيد الرؤية .

وقوله : " صمت " توحى بشدة فزعه لرؤية البلى ، وكرر " كل شئ " فى أول البيت الحادى عشر للربط والتأكيد ، واختار " الوحدة " بدلا من الوحشة لأنها أقوى فى التعبير عن الوحشة ، فالوحدة سبب من أسباب الوحشة . وبذلك التعبير الدقيق عن عاطفة الشاعر الذى تعاونت الألفاظ والعبارات المنتقاة فى رسم الجو النفسى المسيطر على الشاعر استطاع الشاعر أن ينقل تجربته الصادقة إلى السامع وأن يؤثر

فيه ويجعله يشاركه مشاعره وأحاسيسه ، وأثبت أن الكلمة ليست مقصودة لذاتها وإنما لما فيها من إيحاء .

خامسا : الأساليب والتصوير :

اعتمد الشاعر في هذه القصيدة على الأساليب الخبرية والإنشائية ، وهذا هو الأسلوب الأمثل في التعبير فالمزاوجة بين التعبيرين يدلان على تمكن الشاعر من لغته ، وقدرته على توظيف اللغة واستثمارها لتحمل معانيه في وضوح وتأثير على المتلقي ، ولذلك رأيناه يأتي بالأساليب الخبرية تارة ، والإنشائية تارة أخرى ، فالبيت الأول : أسلوبه خبري وكذلك صدر البيت الثاني والغرض منهما التعظيم ، ثم صدر البيت الثالث والرابع والغرض منهما إظهار الأسى والألم .

ومن الأساليب الإنشائية قوله : " كيف بالله رجعنا غرباء " في البيت الثاني وهو استفهام الغرض منه التعجب ، وفي البيت الثالث نداء وأمر : " يا قلبي اتئد " والغرض منهما التمني . وفي البيت الرابع : " لم عدنا " استفهام أفاد اللوم والندم والإنكار ، وأسلوب التمني في البيت أنا لم نعد " أفاد التحسر ، وفي البيت الخامس استفهام في قوله : " لم عدنا " ؟ يؤكد إنكار العودة وقوله " أولم نطو الغرام ؟ " استفهام الغرض منه التقرير وفيه تأكيد على الندم والتأنيب .

أما أبيات المقطع الثاني فهي خبرية أفادت إظهار الأسى

والألم ، وليس فيها من الأساليب الإنشائية سوى " يا ويحك "
وهو نداء الغرض منه التعجب ، وفيه إيحاء بالتحسر والتألم .

أما التصوير ، فإننا نجد هذه القصيدة بمثابة لوحة فنية متناسقة الألوان والظلال فقد ضمن الأبيات الأولى صورة كلية لنفسه بين فيها شوقه وحنينه ، ثم صدمته وألمه ، ولوم نفسه وتأنيبها وهى حافلة باللون والصوت والحركة ترى اللون فى : صباحا ومساء ، وكالذبيح ، والدمع ، ونحس الحركة فى طائفيها ، والمصلين ، وسجدنا ، ورجعنا ، ورفرف ، فطوى ونسمع الصوت فى " رفرف القلب " اهتف ، يجهب ، وقد حوت هذه الصورة الشعرية صورا جزئية ، ففى البيت الأول :
" الكعبة " استعارة تصريحية ، حيث شبه منزل حبيبته بالكعبة وحذف المشبه وصرح بالمشبه به ، ورشح هذه الاستعارة بذكر الطواف والصلاة ، ففيها استمرار الخيال وتقوية له بذكر لوازم المشبه به ، وسر جمالها توضيح المعنى وهى توحى بالتقديس والإخلاص فى الحب .

وفى البيت الثانى : " كم سجدنا وعبدنا " ، " الحسن فيها " كناية عن الخشوع والخضوع لسيطرة الجمال وسلطان الحب ، وقوله : " رجعنا غرباء " تشبيه يوحى بالأسى والألم .

وفى البيت الثالث : " رفرف القلب " استعارة مكنية ، والقلب كالذبيح " تشبيه " ياقلبى اتئد " استعارة مكنية وفيها تشخيص وإيحاء بقوة الصدمة ، وقوله : " ويجيب الدمع والماضى "

استعارتان مكنيتان ، وقوله : " الماضي الجريح " استعارة مكنية ، وفي البيت الخامس : " أولم نطو الغرام ؟ " استعارة مكنية . وفي البيت السادس : " ورجعنا بسكون وسلام " كناية عن الراحة الناتجة عن اليأس ، " فراغ كالمعدوم " تشبيه يوحى بما في نفس الشاعر من تعلق بالحب ، فقد جعل الخلو منه فراغا كالعدم .

أما أبيات المقطع الثاني فقد رسم فيها لوحة أخرى لما كانت عليه الدار وما انتهت إليه ، ومنها الصوت في " صحت وأقدام الزمن " . واللون في : الليل ولون العنكبوت ، والحركة في : ثوى ، سرت ، أناخ ، وجثم ، وجرت ، وأبصرت ، وتنسجان ، وخطا الوحدة . وفي ظلال هذه اللوحة صور خيالية جزئية فقوله : " موطن الحسن " كناية عن دار الأحبة ، و " ثوى فيه السأم " استعارة مكنية ، و " سرت أنفاسه في جوه " استعارة مكنية تصور أشخاصا تسرى وتتحرك في فراغ المنزل ، وفيها تشخيص وإيحاء بامتلاء المنزل بالكآبة ، وقوله : " أناخ الليل " استعارة مكنية ، و " جثم " ترشيح للاستعارة و " جرت أشباحه " استعارة مكنية ، و " البلى أبصرته " استعارة مكنية ، و " يداه تنسجان " ترشيح للاستعارة .

والبيت التاسع : " والبلى أبصرته ... " كله كناية عن الخراب والعنكبوت مجاز مرسل حيث أطلق العنكبوت وأراد خيوطه ، والعلاقة السببية لأن العنكبوت سبب نسجه .

وقـوله : " ويحك " استعارة مكنية ، وقوله " كل شئ فيـه حى لا يموت " استعارة مكنية ، حيث تخيل الذكريات كائنـات حية لا تفنى ، وفيها تجسيم وإيحاء بقوة الحب واستمـــراره ، وقوله : " وأقدام الزمن " استعارة مكنية ، و " خطا الوحـدة " استعارة مكنية تصور الوحدة إنسانا يصعد الدرج .

وقد استعان الشاعر ببعض المحسنات البديعية كالطبـاق بين : " صباح مساء " وبين " عدنا ، ولم نعد " ومراعاة النظير بين " الكعبة وطائفيها والمصلين وسجدنا وعبدنا " والطباق بين : " ثوى وسرت " و " جثم وجوت " ، و " سرور وحـــزن " ويهيج ، وشجى " ، وهى محسنات فى موضعها لا تكلف فيهـا ولا اضطـــراب .

سادسا : نظرة عامة فى الأبيات :

عاصر الشاعر إبراهيم ناجى حركة تجديد شعرية حاولـت أن تبث فى القصيدة العربية روحا جديدة وتمدها بما فى الأدب الغربى الحديث من تطور وشارك فى هذه الحركة ناجى بقصيدته هذه ، حيث أخذ يصغى إلى خفقان قلبه ، ويطيل التأمـــل فى عواطفه ويعبر من خلال وجدانه عن خواطره .

ومن هنا كانت قصيدته نموذجا للشعر الوجدانى ، تقـوم على حوار داخلى بين الشاعر ونفسه ولذا كانت من شعــــر الغزل الذى تطور فى العصر الحديث ، فصار تعبيرا عن وجدان

الشاعر وتصويرا لأثر الحب فى النفس ولم يعد قاصرا على الوصف الحسى للمحاسن المنظورة من حمرة الخدود والشفاة وإشراق الوجه وسواد الشعر ، ونحو ذلك ، فالشاعر هنا يرتل لحنا حزينا مستغرقا فى التأمل فى أعماق ذاتيته الشخصية متأثرا بالاتجاه الرومانسى .

وعلى الرغم من أن القصيدة تعبير عن تجربة شعورية خاصة بالشاعر إلا أنها بقوة تأثيرها خرجت عن نطاقها المحدود إلى النطاق الانسانى العام بحيث يشعر كل من يقرأها أن فيها تعبيرا عن شعوره وأحاسيسه ، فمن منا لم يفارق أهلا وأحبابا وأصدقاء وأماكن لها فى نفسه ذكريات يحن إليها ويشعر أنه يحتاج إلى العودة إليها ، والتأمل والمناجاة لها .

وقد جاءت أفكار الشاعر عميقة مرتبة ممتزجة بعاطفة فيها عمق وتحليل وابتكار ، فقد عبر عن ماضيه الجميل وحاضره الموحش بتفصيل واستقصاء وأجرى حوارا داخليا أحيا المعانى وجسمها فى مشهد محكم وصورة دقيقة :

١ - وألفاظه سهلة وواضحة ويظهر فيها أثر مهنته "الطب" وفى الخيال : "رفوف القلب كالذبيح" و "الماضى الجريح" ، و "حنين وألم" ، و "سرت أنفاسه" ، "وحى لا يموت" .

٢ - كما نجده متأثرا فى قوله "يجيب الدمع والماضى الجريح" متأثرا بقول شوقى :

وكنتُ إذا سألتُ القلبَ يومـــاً
تولَّى الدَّمعُ عن قلبي الجوابـــا

كما تأثر فى بعض صوره بالبيئة القديمة مثل : " هـــذه الكعبة " و " أناخ الليل وجثم " ، وبداء تنسجان العنكبوت"

٣ ـ وموسيقاه ظاهرة فى الوزن والقافية المتنوعة على نظـــام المقطوعة ، وداخلية خفية نابعة من ملاءمة الألفـــاظ ، وتنسيقها ، ووضوح الأفكار وترتيبها ، وواضحة فـــى المحسنات البديعية غير المتكلفة .

وتطالعنا شخصية الشاعر من خلال هذه القصيدة ، فهــو أديب مثقف لم يمنعه اشتغاله بالطب عن تنمية مواهبـــه وهو إنسان مرهف الحس صادق الوجدان ، عفيف فى غزلـه ، عميق التأمل ، بارع الخيال ، مجدد فى شعره .

* * *

النص السادس

من أغانى الرعاة : لأبى القاسم الشابى

(١)

أَقْبَلَ الصُّبْحُ يُغَنِّى
للحياةِ النَّاعِسَة
والرُّبَا تَحْلُمُ فى ظِـ
ـلِّ الغُصُونِ المائسة (١)
والصَّبَا تُرْقِصُ أورا
قَ الزُّهُورِ اليَابِسَة (٢)
وتهادى النُّورُ فى تلـ
ـك الفِجَاجِ الدَّامِسَة (٣)

* * *

أَقْبَلَ الصُّبحُ جميلاً
يَمْلأُ الأُفْقَ بهاه
فتمطَّى الزَّهْرُ والطَّيْـ
ـرُ وأَمْوَاجُ المِيَاه
قد أفاقَ العالمُ الحَىُّ
وغَنَّى للحياه
فأَفيقى يا خِرافى
واهْرَعى لى يا شِيَاه

(٢)

وَاتْبَعِينى يا شِياهِى
بَيْنَ أَسْرابِ الطُّيُورْ (٤)
وَامْلَئِى الوادِى ثُغَاءً
وَمِرَاحًا وحُبُورْ (٥)
وَاسْمَعِى هَمْسَ السَّوَاقى
وَانْشَقِى عِطْرَ الزُّهُورْ
وَانْظُرِى الوادِى يُغَشِّيـ
ـهِ الضَّبَابُ الْمُسْتَنِيرْ (٦)

* * *

وَاقْطُفِى مِنْ كَلَأ الأَرْ
ضِ ومَرْعاها الجَدِيدْ
واسْمَعِى شَبَّابَتِى تَشْـ
ـدُو بِمَعْسُولِ النَّشِيدْ (٧)
نَغَمًا يَصْعَدُ مِنْ قَلْـ
ـبِى كأَنْفاسِ الوُرُودْ
ثُمَّ يَسْمُو طائرًا كالْـ
ـبُلْبُلِ الشَّادِى السَّعِيدْ

* * *

وإِذا جِئْنا إِلى الغا
بِ وَغَطَّانا الشَّجَرْ
فاقْطُفِى ما شِئْتِ مِنْ عُشْـ
ـبٍ وزَهْرٍ وثَمَرْ

أرضعتْهُ الشمسُ بالضوْ
ءِ وغذّاهُ القمرْ
وارتوى مِنْ قطراتِ الطَّـ
ـلِّ فى وقتِ السَّحَرْ

* * *

وامرحى ما شئتِ فى الوِدْ
يانِ أوْ فوقَ التلالْ
واربضى فى ظِلِّها ما
شئتِ إنْ خفتِ الكلالْ (٨)
واخفضى الأعشابَ والْـ
أفكارَ فى صمتِ الظلالْ
واسمعى الريحَ تغنِّى
فى شماريخِ الجبالْ (٩)
لكِ فى الغاباتِ مرعا
كِ ومسعاكِ الجميلْ
ولىَ الإنشادُ والعزْ
فُ إلى وقتِ الأصيلْ

* * *

أولا : التعريف بالشاعر :

أبوالقاسم الشابى ولد فى بلدة (الشابية) إحـــدى ضواحى (توزر) من مدن تونس سنة ١٩٠٩م وكان والـــده قد تعلم بالأزهر وظل به سبع سنوات تتلمذ فيها على يد الشيخ محمد عبده ، ودرس بالزيتونة فنال شهادة " التطويــــع ـ العالمية بالأزهر " ، ثم اشتغل قاضيا وكان صاحب خلـــق كريم ، وصفات حميدة فى النواحى العلمية والثقافية ـ وقـــد اهتم بتربية ابنه ونشأته ، وكان تأثيره واضحا فيه ، فبعـــد أن حفظ القرآن الكريم فى الكتاب أرسله إلى جامع الزيتونـــة بتونس ، فنال إجازة " التطوع " بعـد سبع سنين ، ولم يرغب فى الوظيفة ، وفضل الاستمرار فى التعليم ، فالتحق بكليــــة الحقوق التونسية ، وأسهم بنشاطه الأدبى فى جمعيـــــــة الشبان المسلمين والنادى الأدبى بتونس ، وكان نشيطا ذا ذكو متوثب إلا أن مرضه " التضخم فى القلب " أخذ يزداد عليه ، فأورثه ذلك نوعا من التشاؤم والمرض النفسى ولم يمهله المـــرض وراح ضحيته فى أكتوبر سنة ١٩٣٤م ، وهو لا يتجاوز الخامسة والعشرين ربيعا ، ولم يتعلم لغة أجنبية ، ولكنه اطلع علـــى كثير مما ترجم ، وقرأ تجارب شعراء المهجر وشعراء مصر والبـلاد العربية ، واستطاع أن ينفذ من قراءاته إلى صورة جديـــدة لشعره ، وفيها نراه يتحرر من موضوعات الشعر التقليدية ، كما نراه يجدد فى أوزانه وقوافيه ، وقد أعجب أبوالقاسم باتجـــاه شعراء المهجر إلى الحديث فى أشعارهم عن آلامهم ومعاناتهم

فأخذ يزيد فى هذا النغم أنغاما لأنه كان معذبا فى حياته ، ويندبها ندبا حارا ، وفى أثناء ذلك تجده يتغنى بجمال الطبيعة من حوله ، كأنه يتحسر عليها وعلى غده وما ينتظره من مصيره المحتوم ، كما تغنى بآمال بلاده فى خصومتها السياسية لفرنسا ، وله فى ذلك قصائد وطنية حماسية كقصيدته المشهورة التى يقول فيها :

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الحَيَاةَ
فلا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ القَدَرْ
وَلابُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِي
وَلا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرْ

وقد بدأ الشابى فى نظم الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره إذ نظم قصيدته الأولى سنة ١٩٢٣م ، ثم اتصل بمجلة (أبوللو) وكان من المحتفين بها ، وأخذ يراسلها بقصائده بصورة منتظمة حتى وفاته ، كما كتب مقدمة ديوان " الينبوع " لأحمد زكى أبى شادى ، مؤسس جماعة (أبوللو) ، وقد جاء شعره سهلا واضحا لا تكلف فيه ، يحمل عاطفته الصادقة وترتيلاته الشاجية وتأملاته .

وقد ظهرت مجموعته الشعرية سنة ١٩٢٧م ، كما أن له العديد من الدراسات والمقالات التى نشرت بالمجلات والجرائد العربية ، راجع عنه : الشابى شاعر الخضراء : لحمدى محمد عبد الوهاب (الدار القومية للطباعة والنشر) ، ومقدمة ديوانه : " أغانى الحياة " بقلم محمد الأمين الصادر فى تونس سنة ١٩٥٥م .

ثانيا : معانى الكلمات :

١ ـ المائسة : المتحركة .

٢ ـ الصَّبا : ريح معتدلة .

٣ ـ الدامسة : المظلمة .

٤ ـ أسراب : جمع سرب ، وهو القطيع من الغنم وغيرها .

٥ ـ الثُّغاء : صوت الشياه والخراف ، المراح : النشـــاط ،
الحبور : الســـرور .

٦ ـ يغشى : يغطى .

٧ ـ الشبابة : نادى الرعـاة .

٨ ـ اربضى : اجلسى .

٩ ـ شماريخ الجبال : أعاليها ، ومفردها : شمراخ .

ثالثا : المعانى والأفكار :

١ ـ القصيدة التى ندرسها للشابى هى أنشودة مـــن أناشيد الرعاة استلهمها الشابى من هؤلاء الذين يرعون الغنم فوق تلال تونس الخضراء وتحت سمائها الزرقاء ، وهو فيهـــــا مرح يترنم بشروق الصباح الذى أطلت تباشيره على كل ما فـــى الحياة ، فهو يقول عن بهجة الصباح : لقد أقبل الصباح بنـــوره الوضاء ، موقظا الحياة من رقدتها ، بعد أن كانت الربا قبـــل قدومه سابحة فى الأحلام تحت ظلال الأغصان التى تتمايـــــل ذات اليمين وذات الشمال ، كانت ريح الصبا تحرك برفق أوراق

الزهور ، وأما النور فقد أقبل يتمايل ليمحو ما خيم على الطـرق من ظلام .

بهذه المظاهر أقبل الصبح جميلا فخلع جماله على جميع النواحى ، ودبت الحياة فى الكائنات ، فقد تحركت الأزهـار ، ونشطت الأطيار ، وتدفقت أمواج المياه ، واستيقظ العالـم مستقبلا الحياة بموكب من الغناء ، فاستيقظى يا شياهـى ، وأسرعى إلىّ لنستمتع بالحياة كما استمتعتْ بها الكائنات .

٢ - أما أبيات المجموعة الثانية ، فإنها مناجاة للشياه حيث ينادى الشاعر خرافه وشياهه لترعى بين أسراب الطيـور وأن تبعث صوتها فى الوادى دليلا على نشاطها وفرحهـا بالحياة ، ثم يقول لها : استمتعى بالأصوات المنبعثـة من السواقى ، وتنشقى الروائح الزكية وتمتعى بمرأى الـوادى وقد غطاه ضباب لا يحجب الرؤية ، وتنقلى فى المراعى متناولـة ما حلا لك من الأعشاب ، مشنفـة آذانك بما أرسله من أناشيد الناى ، وقد خرج من قلبى رقيقا كأنفاس الورود ، منطلقـا من الناى يحكى تغريد البلابل السعيدة ، فتنقلى بين أعشاب الغابات قاطفة من الأزهار والثمار ما ترعرع ، فقد أمدته الشمس والقمر بالحياة ، ورواه الندى فامتلأ نضارة ، واطلقى لنفسـك العنان فى المرح فى شتى النواحى ، وإذا أحسست التعـب فاجلسى تحت الظل ملتمسة الراحة ، واجترى غذاءك وأنكارك فى سكون هذه الظلال واستمعى إلى أغانى الريح منطلقـة فى أعالى الجبال .

ويختم الشاعر أنشودته بأن لها مرعاها الجميل ، أما هو فعليه أن يمتع هذه الأغنام بأغانيه وإنشاده ، وعزفه حتى وقت الأصيل .

رابعا : الدراسة الفنية :

١ - موضوع القصيدة جديد ، فهى من أغانى الرعاة وقد بدأت هذه الأغانى عند اليونان ونماها الرومان ، ثم شاعت عند الغربيين فى العصر الحديث ، ويظهر أن الشابى قرأ بعضها مترجما ، أو سمع بها ، فرأى تقليدها ، ومن غير شك أنه وفق فى هذا الاتجاه ، فقصيدته تموج رقة وعذوبة وتحمل طابع الرعاة فى بلاده ، وتصوير محيطهم والمناظر الخلابة التى تتمتع بها طبيعة تونس الخضراء .

وقد جاءت ألفاظه وأساليبه سهلة رقيقة واضحة تتنساب كالجدول الرقراق ، تتمايل فى نشوة وخفة تستقبل الصباح البهيج وتنفض بقايا النوم عن العيون ، وتستقبل نسمات الصبح البهيجة .

وكانت تعبيرات الشاعر ملائمة لموضعها كل الملاءمة ، نلمح هذا فى الكلمات السهلة المعبرة مثل : التغنى ، والرقص والتهادى ، والتمطى ، والغناء للحياة ، فهذه كلها تعبيرات تلائم موكب الصباح .

٢ - وفى المقطع الثانى يستمر الشاعر فى أنشودته بألفاظه

المعبرة ومعانيه الواضحة وتأثره بالبيئة فى بلاده . فقد دعا فى هذا المقطع إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة فى أوسع نطاق متمثلا فى مشاهدة الطير ، واستنشاق الزهر والإصغاء إلى أنين السواقى وأغانى الرياح وسماع الناى ، والمرح بين الوديان والتلال ، ولا عجب فقد أودع الله تعالى الطبيعة من الجمال والبهاء ما يأخذ بالألباب ويبعث بالسرور إلى النفوس ويجدد النشاط ويحيى الآمال ، فمن أثر البيئة فى الأنشودة : الشياه ،أسراب الطيور ، همس السواقى ، وشبابتى (الناى) ، البلبل الشادى ، الوديان ،التلال ، كما كانت ألفاظه وتعابيره مناسبة للفكرة التى تناولها فى هذا الجزء من الأبيات وملائمة لها . فهو يطلب من الشياه أن تتبعه بين أسراب الطيور ، وأن تملأ الوادى ثغاء ومرحا وحبورا ، وتستمتع بهمس السواقى ، واستنشاق عطر الزهور ، إلى آخر ما فى الأبيات من ألفاظ دقيقة سهلة ومعبرة، ومعانى واضحة كل الوضوح ، مما يتناسب والأناشيد التى تتسم بالخفة والبساطة فى التعبير . فالأنشودة تصور بساطة الرعاة ، ولهذا جاءت لغتها سهلة ومعانيها قريبة واضحة وهى بذلك تطابق موضوعها ، فهى أغنية خفيفة ، أغنية رعاة .

خامسا : التصوير :

أبيات هذه الأنشودة ـ كما قلنا ـ سهلة واضحة تحمل خفة الروح وبساطة التعبير ، ومع ذلك فقد رسم الشاعر فيها

صورا رائعة لإقبال الصباح وللرعاة وللشياه ومرعاها ، فبدت كل صورة ملتحمة الأجزاء ، فلا تحس جمال الصور الجزئيـــة فيها كما تحسه مقرونا بغيره ، فقد جاءت تصويراته لوحة فنيـة رائعة ، اجتمعت خطوطها وألوانها من صوت نسمعه فى قوله : يغنى ما ترقص أوراق الزهور ، غنى ، أنيقى ، واتبعيـــــنى ، واملئى ، واسمعى ، وانظرى ، واقطفى ، واسمعى ، نغمـا ، الشادى ، اخطفى ، امرحى ، اربضى ، امضغى ، اسمعى ، الانشاد ، العزف ، ولون نراه فى : الصبح ، ظل ، الداميـة والزهور ، الضباب ، المستنير ، كلأ الأرض ، الورود ، زهــر ، الشمس ، الضوء ، الأعشاب ، الغابات ، الأصيل ، وحركات تحسها فى : ترقص ، تهادى ، تمطى ، ثغاء ، مراحـــا ، يصعد ، اقطفى ، اربضى ، امرحى ، امضغى ، مسماك ،

فالوحدة الفنية واضحة فى القصيدة فهى كسلسلة تتألــف من حلقات ، وكل حلقة تتلو أختها وتتقدم تاليتها فى إحكـام وترابـــط .

وقد اعتمدت هذه الصورة الكلية على صور جزئية رائعة ، كالاستعارة المكنية فى : إقبال الصبح وغنائه ، والربا تحلم ، والصبا ترقص الأوراق ، والنور يتهادى ، والزهر والطــير والموج يتمطى ، والخطاب الموجه للشياه ، همس السواقى ، ومعسول النشيد ، وإرضاع الشمس للنبات ، وتغذية القمر لـه ، واجترار الشياه للأذكار حينما تربض تحت الشجر تجد غذاءهــا سابحة سارحة . وكالتشبيه فى نغم كأنفاس الورود وهو فى صعود ،

كالبلبل الشادى السعيد ، وكل هذه الصور تعكس جمال التصوير ، ورقة الخيال وعذوبة التعبير ، كما تعكس أمامنا عاطفة الشاعر البهيجة ، والمتفائلة التى تقبل على الحياة ، تنهل من معينها الصافى وتدعو إلى التمتع بالطبيعة والمرح والسرور وتجديد النشاط مما يتناسب مع موضوع هذه الأنشودة وما تحمله من معان وأفكار ، ولعلنا نلمس رقة الشاعر ورهافة حسه فيما يعكسه البيتان الأخيران من تدفقهما بالحنان والعطف على الحيوان ، إذ لم يكتف الشاعر بإسعادها بالمرعى ، بل أضاف إلى ذلك الغناء لها حتى تستمتع بالحياة فى أوسع حدودها .

وقد جاءت بعض المحسنات البديعية فى هذه الأنشودة فى موضعها فأضفت على المعانى جدة وجمالا ، ومن ذلك : الطباق بين : يغنى ، والناعسة ، وتحلم ومائسة ، والنور والدامسة ، والضباب والمستنير ، والشمس والقمر ، ووديان وتلال .

سابعا : التعليق العام :

أول ما يسترعى انتباه القارئ لهذه الأنشودة أن الشاعر أقبل على الطبيعة إقبال المستهام الوامق ، فانساب معها واتخذها مادة لشعره ليستمد منها صوره وتعبيراته ويتغنى بمباهجها وجمالها ويدعو إلى الإقبال عليها ، والاستمتاع بها ولذلك جاءت تعابيره سهلة واضحة تحمل عاطفته ومشاعره

الوالهة للطبيعة وإعجابه الشديد بها ، ولذلك حفلت الأنشودة بكثير من الخيال المبهج الفرح .

ولغة الشاعر عليها مسحة واضحة من الرومانسية الحالمة تبدو فى الكلمات : الصبح يغنى ، والربا تحلم ، والصبا ترقص أوراق الزهور ، والصبح أقبل جميلا ، واملئى الوادى مراحا وحبور ، وانشقى عطر الزهور ، واسمعى شبابتى ، تشدو ، بمعسول النشيد .

أما شكل القصيدة وبناؤها فإنها لم تجر فى قافية واحدة ، بل جعلت فى قطع ، ولكل قطعة قافيتها الخاصة ، وهى تتغير فى كل أربعة أبيات ، فالشاعر قد تحرر من القافية الموحدة فى القصيدة ، وهذا لون من ألوان التجديد الذى اتجه إليه شعراء مدرسة أبولو وهو تجديد مقبول سبقهم إليه شعراء العصر العباسى حيث كان لهم من ذلك ألوان عديدة .

* * *

النص السابع

فلسفة الحياة : لإيليا أبوماضي

(١)

أيُّهذا الشّاكي وما بك داءٌ
كيف تغدو إذا غدوت عليلا (١)

إنّ شرّ الجناة في الأرض نفسٌ
تتوقّى قبل الرّحيل الرّحيلا (٢)

وترى الشّوك في الورود وتعمى
أن ترى فوقها النّدى إكليلا (٣)

والذي نفسه بغير جمالٍ
لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

فتمتّعْ بالصّبح ما دُمت فيه
لا تخفْ أنْ يزولَ حتّى يزولا (٤)

(٢)

أدركتْ كُنْهها طيورُ الرّوابي
فمِنَ العارِ أنْ تظلّ جهولا

تتغنّى والصّقرُ قد ملكَ الجـ
ـوّ عليها والصّائدون السّبيلا

تتغنّى وعمرُها بعضُ عامٍ
أفتبكي ،وقد تعيشُ طويلا ؟

فاطلبِ اللّهوَ مثلما تطلبُ الأطـ
سيارُ عند الهجيرِ ظِلّاً ظليلا
وتعلّمْ حُبَّ الطبيعةِ منها
واتركِ القالَ للورى والقيلا (٥)

(٣)

أنتَ للأرضِ أولاً وأخيرا
كنتَ مَلْكاً ، أو كنتَ عبداً ذليلا
كلُّ نجمٍ إلى الأُفولِ ولكنْ
آفةُ النجمِ أن يخافَ الأُفولا (٦)
فإذا ما وجدْتَ في الأرضِ ظِلّاً
فتفيَّأْ به إلى أن يحُولا (٧)
وتوقَّعْ إذا السماءُ اكفهرَّتْ
مطراً في السُّهولِ يُحيي السُّهولا
ما أتينا إلى الحياةِ لنشقى
فأريحوا ـ أهلَ العقولِ ـ العقولا
كلُّ من يجمعُ الهمومَ عليهِ
أخذتْهُ الهمومُ أخذاً وبيلا

(٤)

كُنْ هَزاراً في عُشّهِ يتغنّى
ومعَ الكَبْلِ لا يُبالي الكبولا (٨)
ولا غراباً يُطاردُ الدُّودَ في الأرْ
ضِ وبُوماً في الليلِ يبكي الطُّلولا

كُنْ غَديرًا يَسيرُ في الأرْضِ رَقْرا
قًا فيَسْقِي عن جَانِبَيْهِ الحقولا (٩)
لا وعاءً تُقيِّدُ الماءَ حتّى
تستحيلَ المياهُ فيه وحُولا
كُنْ مع الفَجْرِ نسمةً تُوسِعُ الأزْ
هارَ شَمًّا وتارةً تَقْبيلا
لا سَموماً من السَّواقي اللّواتي
تملأُ الأرضَ في الظّلامِ عَويلا (١٠)
ومع الليل كوكبًا يُؤْنِسُ الغا
بَاتِ والنّهْرَ والرُّبَى والسُّهولا
لا دُجىً يكره العوالمَ والنّا
سَ فيُلْقي على الجميعِ سُدولا (١١)
أيهذا الشّاكي وما بِكَ داءٌ
كُنْ جَميلاً تَرَى الوُجودَ جَميلا

* * *

أولا : التعريف بالشاعر :

في منتصف القرن الماضي (التاسع عشر) اضطر بعض أبناء الشام من العرب المسيحيين من سورية إلى الهجرة عن وطنهم بسبب الاضطهاد السياسي والصراع المذهبي الديني والفقر والتطلع إلى الحرية والكسب ، فاتجه بعضهم إلى أمريكا الشمالية ، وبعضهم إلى أمريكا الجنوبية بعد ذلك

ثم توالت الهجرات ، وبعد أن استقر بهم المقام بدأت الحياة الجديدة تؤثر فى حياة هؤلاء المهاجرين فى أحاسيسهم ومن ثم فى أدبهم ، وذلك لاختلاف الحياة الاجتماعية والثقافية والحضارية عن وطنهم لبنان ، وقد عانوا معاناة قاسية فى هذه الحياة ، ولم يتحقق لهم ما أرادوا من الاستقرار والحياة الكريمة وإن تحقق لهم الشعور بالحرية والأمن إلى أبعد مدى وكان من بين هؤلاء أدباء أخذوا يتجهون بشعرهم للتعبير عن حياتهم الجديدة ، وكانت فرحتهم بإحساسهم بالحرية إلى جانب عدم اهتمامهم بالتراث العربى دافعا إلى التحرر من القيود التقليدية للشعر على درجات متفاوتة فيما بينهم ومع اختلاف بين من عاشوا فى أمريكا الشماليةون عاشوا فى أمريكا الجنوبية ، إذ كانت أمريكا الجنوبية أشبه ما تكون بالمجتمعات الشرقية ، وتكونت من مجموع المهاجرين جماعتان أدبيّتان : الرابطة القلمية فى أمريكا الشمالية وتأسست فى : نيويورك سنة ١٩٢٠ك ، وكان رائدها جبران خليل جبران ، ومن أعضائها نسيب عريضة ، وعبد المسيح حواد ، وميخائيل نعيمة ، وإيليا أبو ماضى ، ورشيد أيوب ، وندرة حواد وغيرهم .

هذه الجماعة كانت تميل إلى التجديد والثورة على الشعر التقليدى ، فحملوا بذلك مشعل ثورة التجديد فى شعر المهجر .

أما الجماعة الثانية فهى العصبة الأندلسية ، وقد تكونت من أدباء أمريكا الجنوبية سنة ١٩٣٣م ومقرها البرازيل ، وكان

أعضاؤها يميلون إلى المحافظة وعقد الصلة بين القديم والجديد من الشعر ، فجاء تجديدهم مقبولا ومن أعضائها : الشاعر رشيد الخوري (المعروف بالشاعر القروى) وشكر الله الجر ، وإلياس فرحات ، ورياض المعلوف ، وفوزى المعلوف ، وشفيق المعلوف ، وحليم خورى ، وغيرهم .

فإيليا أبو ماضى من شعراء المهاجر الشمالية ومن أبرز شعراء الرابطة القلمية ، ولد بقرية المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩م ولم يكد يبلغ الحادية عشرة حتى هاجر إلى مصر يطلب الحرية ويسعى إلى حياة آمنة ، وظل عشر سنوات بها يحرر فى الصحف والمجلات وقد ظهرت شاعريته مبكرة ، فنشر ديوانه الأول (تذكار الماضى) سنة ١٩١١م ثم هاجر إلى أمريكا ، وأصبح أحد أعضاء الرابطة القلمية فى نيويورك منذ إنشائها سنة ١٩٢٠م .

ثم أصدر مجلة (السمير) سنة ١٩٢٩م ونشر وهو بأمريكا ديوانين له : أولهما : الجداول سنة ١٩٢٧م وثانيهما : " الخمائل " الذى أذاعه سنة ١٩٤٩م ، ثم ظهر له بعد وفاته ديوانه " تبر وترلب " ، وقد توفى سنة ١٩٥٧م .

وقد أتاحت هذه الهجرة لأبى ماضى ثقافة واسعة ، حيث اطلع على الآداب الغربية وتعمق فى قراءتها وعرف بدائعها ، وعلى نحو ما قرأ فى الأدب الغربى قرأ فى الأدب العربى وخرج من ذلك كله بشخصية جديدة فى شعرنا الحديث .

ويمتاز شعر أبى ماضى بأن موضوعاته جديدة ، إذ يتجـه بشعره إلى التفكير فى الحياة والتأمل فى الكون وفى الخـير وفى الشر • وقد استطاع أن يكوّن لنفسه فلسفة خاصة وهى فلسفة لا تقوم على التشاؤم ، وإنما تقوم على التفاؤل ، والدعوة إلـى التمتع بالجمال فى الكون ومسرات الحياة ، وتوضح هـذه النزعة قصيدة " فلسفة الحياة " التى نعرض لدراستها هنـا ، كما تصورها قصيدته " ابتسم " والتى يقول فيها :

قَالَ : السَّماءُ كئيبةٌ ، وتَجهَّمـا
قلتُ: ابتسمْ ،يكفى التَّجهُّم فى السَّما
قَال : الصِّبا وَلَّى فقلتُ له : ابتسمْ
لنْ يُرْجِعَ الأسفُ الصِّبا المُتَصرِّمـا

ولهذا كان شعره قريبا من نفس قارئه ، ويقبل عليه الإنسان فى رغبـة ، لأنه شعر ينشط العقل ويبعث الأمل فى النفـوس ويجعل الإنسان قادرا على تحمل أعباء الحياة ومشاكلها •

وكان لنزوحه عن بلاده وهو صغير الأثر الواضح فى كثـرة الحنين إلى وطنه فى شعره فهو يذكره كثيرا فى شعره ويتشوق إليه تشوق المحب الولهان وهو جانب واسع فى شعر شعـراء المهجر بعامة ، فقد هاجروا من ديارهم إلى الدنيا الجديدة باحثين عن العيش، وأقبلت عليهم الدنيا ، ولكن مع فـراق الأهل والإخوان ، فولّد ذلك لديهم الإحساس العميـق بالوحشة والغربة فى العالم الجديد •

كما جنح إيليا أبوماضي إلى التعبير عن أفكاره بالرمز مثل قصيدته "الحجر الصغير" و "التينة الحمقاء" وتلك ناحية طريفة فى شعر إيليا وغيره من شعراء المهجر .

كما يمتاز أسلوب إيليا بالسهولة والوضوح وهى تبلغ من سهولتها حدا تشبه فيه أسلوب النثر العادى ، ولكنه عوض ذلك بطرافة معانيه وموضوعاته ، كما جدد فى الأوزان كمعظم شعراء المهاجر الشمالية ممن ثاروا ثورة واسعة على لغة الشعر القديمة وأوزانه الموروثة . كما يغلب المذهب الرومانسى على شعراء المهاجر بعامة فى موضوعاتهم وأفكارهم وأغراضهم ، فأساس مذهبهم يتلخص فى وجوب التعبير الصادق عن النفس وخلجاتها وما تنبض به القلوب من آمال وآلام وأفكار وتأملات فى الحياة الطبيعية . وقد ساروا على هذا المنهج فجاء شعرهم خواطر نفسية وتأملات وجدانية وأفكار فى الفلسفة والحياة – راجع فى حياة إيليا ضاهر أبوماضى لفؤاد يسى ، رسول الشعر العربى الحديث لعيسى الناعورى ، شعراء المهجر لمحمد قره على .

ثانيا : معانى المفردات :

١ – كيف تغدو : كيف يصبح حالك .

٢ – تتوقى : تخاف ، الرحيل : المراد الانتقال إلى الدار الآخرة .

٣ – الإكليل : التاج .

٤ ـ الصبح : المراد به هنا فرص الحياة السعيدة .

٥ ـ القيل والقال : المراد ما يدور من كلام حول التنفير من الحياة .

٦ ـ الأفول : العزوب .

٧ ـ تفيأ : استظل .

٨ ـ الهَزار : كل طائر مفرد ، وهو معرب عن الفارسية ، الكَبْل : القيد والمراد القفص الذى حبس فيه .

٩ ـ الغدير : النهر .

١٠ ـ السَّموم : الرياح الحارة ، السوافى : الرياح المحملة بالتراب .

١١ ـ السدول : الأستار والحجب .

ثالثا : المعانى والأفكار :

أ ـ تدور القصيدة حول فكرة أو فلسفة واضحة للشاعر مجملها أن الحياة جميلة ، ولكن جمالها لا يدركه إلا أصحاب النفوس الجميلة ، أما أصحاب النفوس الشريرة فإنهم عمى ، لا يرون هذا الجمال ولا يشعرون به .

وفى المجموعة الأولى من الأبيات يتجه الشاعر إلى ذلك الإنسان المشتكى هموم الحياة ، المتخاذل أمام تبعاتها ، قائلا : إذا كنت تجأر بالشكوى ، الآن مع أنك سليم معافى ، فكيف يصبح حالك فيها إذا صرت مريضا حقا ؟ فلا شك أن شر ما يجنى على الإنسان نفس تخشى الموت قبل أن ينزل ،

وترهب البلاء قبل أن يقع ، وتنظر إلى الحياة نظرة تشاؤم ، فهى لا ترى منها إلا أشواكها ومآسيها وتعمى عن رؤية جمالها ومباهجها ومتعها ، وهكذا من كانت نفسه معتمة خلوا من الجمال لا يرى فى الحياة شيئا جميلا ، ولا يدرك منها إلا قبحها ، فجدير بك أن تغتنم أوقات السرور وتتمتع بفرص الحياة السعيدة ما حييت ، غير خائف ولا مترقب زوالها ، لئلا تنغص على نفسك حياتها .

ما مضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التى أنت فيها

أو كما قال الآخر :

ما مضى فات ليس يرجع ماض
أو يفيد البكاء والأحزان

ب ـ وفى المقطع الثانى يدعو الشاعر كل شخص إلى التمتع بحياته وحاضره دون نظر إلى غده ، ويضرب لنا المثل بالطيور التى ترى الموت بعينيها وترتل أناشيدها وهى قصيرة العمر ولا تبكى بل تضحك وتصفق بأجنحتها بين الأشجار وتلهو وتلعب ، فليتعلم منها الإنسان ـ الذى أنعم الله عليه بنعمة العقل ـ هذا الدرس ، وليخرج من أوقات تعاسته إلى المتعة بالحياة ، والتملى بمناظر الطبيعة وليدع كلام المتشائمين الذين يمجون سم الألم من أفواههم وأقوالهم .

جـ ـ وفى المجموعة الثالثة من الأبيات يقول لبنى الإنسان إن كل شخص فى هذه الدنيا مرده إلى الأرض ، منها خلق

وإليها سيعود ، سواء علت منزلته أم صغرت، وليعلم كل إنسان أن كل حي إلى فناء ، كما أن كل نجم يشرق مآله الأفول ، فلن يضير الإنسان فناؤه ، فهذا أمر مقرر يتساوى فيه كل كائن ولا مفر منه ، ومن الواجب على كل شخص أن يوطن نفسه عليه ولا يفكر فى وقوعه ، ليعيش سعيدا ، وإنما الذى يضير ويشق على النفس أن يشقى الإنسان نفسه ، فى ترقب الموت والخوف منه ، قبل وقوعه ، فيكدر على نفسه صفو الحياة .

ومن أجل ذلك وجب أن تنعم بما نجده فى الحياة من متع وفرص سعيدة قبل أن يتحول عنها ظلها ، وعلينا أن نطرد اليأس من نفوسنا إذا رأينا اضطراب الحياة وتأزمها و نرقب بعد الضيق فرجا ، وبعد الشقاء سعادة ، فيا أهل العقول أريحوا نفوسكم من التفكير فى مآسى الحياة لأن ذلك يشقيكم ، فنحن ما وجدنا فى الحياة لنشقى ونتعذب ونجمع الهموم علينا ، إننا إن خضعنا لهمومنا كانت عاقبة أمرنا بوارا وخسرانا .

د - وفى المجموعة الرابعة من الأبيات يطلب الشاعر من الإنسان أن يكون فى إحدى صور أربع، وتنفره من أن يجعل نفسه فى إحدى أربع . فهو يدعونا أن نكون مثل الهزار فى عشه يتغنى حتى ولو أخذت القيود بأطرافه ، وتنفرنا من أن نكون مثل الغراب الحزين الذى يطارد الدود فى النهار أو البوم يأوى إلى الخراب ، وينعق عليه نعيق الشؤم . أو أن نكون كالنهر يسيل رقراقا فيروى الحقول ، لا أن نكون

كالبركة الآسنة يستحيل فيها الماء طينا ، أو أن نكون كنسمة الفجر الرقيقة التي تنعش الأزهار لا مثل ريح السموم تملأ الأرض ترابا والجو ضجيجا ، أو أن نكون مثل النجم يتألق في الليل فيرسل نوره على الكون فيبعث في الطبيعة النور والأنس ويذهب الوحشة، وينفرنا أن نكون ليلا موحشا في سدوله على كل ما حوله فيقذف في قلوبهم الرهبة والوحشة ، ثم يختم قصيدته ببيت يشرح فيه فلسفته ، فمن كانت نفسه جميلة رأى الوجود جميلا .

رابعا : الدراسة الفنية :

هذه القصيدة تعكس أمامنا فلسفة الشاعر ونظرته إلى هذه الحياة ، وهو في هذه القصيدة نفس متفائلة مبتهجة ولكننا نلمح في غير هذه القصيدة من شعره تأرجح أبي ماضي بين السعادة والكآبة ما بين الإيمان بها حتى ليجعلها أمنية متوثبة ، وبين الكفران بوجودها حتى ليجعلها العنقاء في استحالة الحصول عليها ويتخيلها صعبة المنال حتى في الأحلام .

فله من الشعر ما يتأرجح بين الشك واليقين ، وبين اليأس والأمل ، بين العزلة والاجتماع ، بين العبوس والابتسام وبين التشاؤم والتفاؤل ، وليس معنى ذلك أن أبا ماضي كان ذا نفسية مزدوجة ولكنه كان ذا نفسية إنسانية بما في الإنسان من عواطف وأحاسيس وما يتعاوره من ظروف وأحوال ،

وكلنا يمر بهزات نفسية وظروف قاسية تثير فى نفسه الحزن ويدفعه الحزن إلى التشاؤم ولا يغادره ذلك قبل أن يغمره بالأنانية ، وكلنا - كذلك - يمر بسبحات حسية وأحوال هانئة تشيع فى نفسه فتبعث فيها السرور وتحملها على التفاؤل ولا تتركها قبل أن تحيط بها الغبطة والأمل .

وقد كان أبوماضى إنسانا كذلك ، ولا يصح أن نطلب منه أن يكون أكثر من إنسان ، إذا حاول أن يصدقنا فى رسم إحساساته ويحكى لنا الواقع فى عرض عواطفه ومشاعره . يقول أبوماضى :

إن التأمل فى الحياة يزيد أوجاع الحياة ،
فدعى الكآبة والأسى واسترجعى مرح الفتاة
لتكن حياتك كلها أملا جميلا طيبا
ليكن بأمر الحب قلبك عالما فى ذاته
أزهاره لا تذبل ونجومه لا تأفل(١)

ومما يعكس حيرة أبى ماضى وتساؤله الدائم عن مصير الإنسان والكون والحياة ، قصيدته " الطلاسم " التى يقول فيها :

لى ذات غير أنى لست أدرى ما هيه
فمتى تعرف ذاتى كُنْهَ ذاتى
لست أدرى
إننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم

---

(١) ديوان الجداول ص٤١ .

أنا لغز وذهابى كمجيئى طلسم

والذى أوجد هذا اللغز سر مبهم

لا تجادل ، ذو الحجى من قال إنى :

لست أدرى[1] .

ونعود إلى أبيات القصيدة فنجد أن أبا ماضى كان فيها متفائلا صاحب نفس مرحة متوثبة مقبلة على الحياة ولذلك اشتملت أبياتها على حكم خالدة وأساليب طلية جميلة ، أيهذا - كيف تغدو - فتمتع - لا تخف ، وهى ألفاظ تغرى الإنسان وتحثه على الإقبال على الحياة كما جعل هذه الأبيات وضع الندى فى صورة إكليل ، ثم قوله تتغنى وعمرها بعض عام ، أفتبكى وقد تعيش طويلا ، وقد كان جميلا أن يستعمل كلمة : "جهولا" نعتا للإنسان وقد غفل عن جمال الكون بعد أن عرفته الطيور التى لا تغفل ، كما تظهر دقة تعبيره فى جعله المطر محييا للسهول ، وإبرازه الهموم فى صورة حسية إذ جعلها تجتمع وتتراكم .

وقد جعل مجموعة الأبيات الأخيرة ما ساقه الشاعر فيها من ذكر الشئ وضده : كن هزارا لا غرابا ، كن غديرا لا وعاء يقيد الماء ، كن نسمة مع الفجر لا سموما من السواقى ، كن كوكبا يؤنس الحياة لا دجى يكره العوالم ، وكانت دقة تعبيره واضحة فى جعل الهزار مغنيا ، والقفص قيدا ، والوعاء مقيّدا للماء وصوت السموم ضجيجا وعويلا وانتشار الظلمة أستارا ، وبذلك كانت أبياته نابضة بالحياة ذات تأثير عميق

(١) السابق ص : ٢٥ .

فى الشعور ، فلا خير فى شعر نطرب لنغماته الراقصة ، أو ألفاظه المزخرفة ، ثم ننساه سريعا بعد الفراغ من سماعه أو قراءته .

خامسا : التصوير :

إذا كانت أبيات هذه القصيدة تدور حول فكرة أن الإحساس بالجمال فى الوجود يستلزم نفسا تحس به فإن الشاعر قد استعان على إبراز هذه الفكرة بالصورة الكلية التى تعانقت أجزاؤها وتلاحمت حتى وضعت أمامنا وحدة فنية واضحة فى بنائها وتعاقب أبياتها ، وقد اعتمد الشاعر فى بناء هذه الصورة الكلية على صور جزئية كانت ذات أثر واضح فى نقل مشاعر الشاعر وتصوير خواطره وصوره ، فقد جعل وضع الندى المعقود فوق الورود فى الصباح إكليلا وهو تشبيه جميل يوحى إلينا بقطرات الندى تحكى اللؤلؤ تنسيقا وإبداعا ، فهو فوق الورود كاللآلئ المرصعة فى تاج الملك كما كنى عن مباهج الحياة وحسراتها بالصبح البهيج . وتخيل الطيور مشقشقة بأنها تتغنى،تصوير جميل يوحى إلى الانسان الإحساس بالجمال ، كما جعل المطر محييا للسهول ، ففى هذه الاستعارة مايجعلنا نشعر بحياة متفائلة يتحقق فيها النمو والازدهار ويسبح فيها الخيال متصورا ما شاء له التصور ، والاستعارة المكنية فى قوله يجمع الهموم ، حيث جعل الهموم شيئا محسوسا يجمعه الإنسان ويحصل عليه ، كما جعل الهموم أيضا تتراكم كتراكم المواد ، وهذا التصوير الدقيق ناسبه الأخذ الوبيل فلائم

الشاعر بتلك بينها وبين أثرها ، وقد كان الشاعر مجيدا كل الإجادة عندما جمع فى اللوحة الأخيرة من الأبيات بين الشئ وضده وفصل مزية كل ، ثم ما ترتب على ذلك من صور رائعة فقد جعل الهزير مغنيا ، وجعل قفص الطائر قيدا ، وجعل البوم باكيا ، والوعاء مقيدا للماء ، كما صور مرور النسمة بالأزهار شما وتقبيلا ، وجعل صوت السموم ضجيجا وعويلا وانتشار الظلمة أستارا وحجبا .

كما وشى الشاعر أبياته ببعض من المحسنات البديعية التى أضفت على المعانى جدة وطرافة كالمقابلة فى قوله : " وما بك داء ، وغدوت عليلا " ، وفى " ترى الشوك، وتعمى أن ترى الندى إكليلا" ، وبين : " تتغنى وعمرها بعض عام ، أفتبكى وقد تعيش طويلا " ، والطباق فى قوله : " أولا - وأخيرا " ، وبين : " ملكا - وعبدا " .

وقد اجتمع فى أبيات هذه القصيدة الأساليب الخبرية والإنشائية ، وكانت الأساليب تهدف إلى تقرير فكرة الشاعر وتأكيد أن الحياة فرصة للاستفادة منها والتمتع بمباهجها ، أما الأساليب الإنشائية فقد تنوعت ما بين نداء واستفهام وأمر يراد به الحث والإغراء مثل : أيهذا الشاكى ، المعتمد على النداء ، والاستفهام فى قوله : كيف تغدو ، والأمر فى قوله فتمتع ، والنهى المراد به الحث كقوله : " لا تخف " وهى أساليب تغرى الإنسان وتحثه على الإقبال على الحياة والتمتع بمباهجها .

والاستفهام الإنكاري في قوله " أفنبكي وقد تعيش طويلا ".
والأمر المراد به الحث والإقبال على الحياة في قوله " فاطلب ، وتعلم ، وا ترك ، فتفيأ ، وتوقع ، فأريحوا أهل العقول " .

وما جاء في المجموعة الأخيرة من أوامر مراد بها استنهاض الهمم والدعوة إلى الإقبال على الحياة والحرص على التمتع بما فيها من مباهج ومسرات :كن هزارا في عشه يتغنى ، كن غديرا ، كن نسمة ، كن كوكبا ، كن جميلا ، ثم النهي المراد به البعد عن التشاؤم والنظرة السوداوية للحياة : لا تكن غرابا ، لا تكن بوما ، لا تكن وعاء يقيد الماء ، لا تكن سموما من السواقي ، لاتكن دجى يكره العوالم ، فهذه الأساليب المتعددة تلح على الإنسان أن يطرد هواجسه وأحزانه عن نفسه ، وأن لا يستسلم لليأس والقنوط ويخضع للمشاكل والمتاعب فيعيش مهموما حزينا ، وإذا به تمر حياته دون استفادة منها أو نفع بها ، وكان الشاعر موفقا كل التوفيق في هذه التصويرات التي جعلت من قصيدته أنشودة مرحة ، ونغما جميلا يهدهد المشاعر ويبث في النفس الأمل ، وطرح الهموم والأوهام جانبا ، وإذا به مقبلا على هذه الحياة بقلب مفعم بالأمل مستبشرا بالخير ، هانئا سعيدا في هذه الحياة.

بهية ،

يضج ما

من ضيعة

رائحة ،

التعليق العام :

موضوع القصيدة جديد ، فلم يكن القدماء يحللون في قصائدهم حكمة كهذه الحكمة ، ويتسعون بتطبيقها ، على عناصر الطبيعة ، بل كانوا يأتون بحكمهم في أبيات مفردة في شكل تقريري دون دعمها بأدلة خيالية على نحو ما صنع إيليا أبو ماضي في هذه القصيدة وهذا المزج بين الطبيعة والإنسان شئ جديد ، فقد استمد الشاعر أحكامه من الطبيعة وكأنه لا فرق بين الإنسان وعناصر الطبيعة ، بل إنه عنصر من هذه العناصر ، عنصر ممتزج بها ، والشاعر يراه من خلالها ، وهذه ناحية جديدة في شعرنا المعاصر جاءته من التأثر بالشعر الغربي وما قرأه شعراء المهجر وغيرهم في آثار الشعراء الغربيين .

ولهذا فإن القصيدة تفتح آفاقا جديدة أمام القارئ إذ تجعله يفكر في الإنسان والحياة والكون في صورة ممتزجة وتفسح له في التخيل والتصوير ، وهي ناحية مهمة في الشعر الحديث ، إذ ينطلق الفكر إلى آفاق واسعة رحبة . ولا ريب أن ذلك كان مصدره اتساع ثقافة الشاعر وصدق شعوره وأحاسيسه إزاء هذه الحياة وما فيها من متع وجمال .

فهذه القصيدة تجربة نفسية صادقة لإيليا أبو ماضي ، ولهذا جاءت موحدة الفكرة محكمة البناء

مترابطة الأبيات ، كما أنها تعكس أمامنا سعة ثقافة الشاعر وتمكنه من لغته التى جاءت رغم سهولتها ووضوحها - كما عرف عن أسلوبه بعامة - دقيقة المعانى مفعمة بالإيحاءات والمشاعر ، معبرة أدق تعبير عن أفكار الشاعر وما هدف إليه ، كما ترسم صورة للشاعر فى تفاؤله وإقباله على الحياة وحرصه على الاستفادة منها ، والتسلى بمناظر الطبيعة الخلابة فيها .

* * *

النص الثامن

البلاد المحجوبة: لجبران خليل جبران

(١)

هُو ذا الفَجْرُ فقومِى نَنْصَرِفْ

عَنْ دِيَارٍ ما لنا فيها صَدِيقْ

ما عسى يَرْجُو نَباتٌ يَخْتَلِفْ

زَهْرُهُ عن كلِّ وَرْدٍ وشَقِيقْ؟(١)

وَجديدُ القَلْبِ أنَّى يأتَلِفْ

مَعْ قلوبٍ كلُّ ما فيها عَتِيقْ؟(٢)

هو ذا الصُّبْحُ يُنادِى فاسْمَعِى

وَهَلُمِّى نَقْتَفِى خُطواتِهِ (٣)

قَدْ كفانا مِنْ مَساءٍ يدَّعِى

أنَّ نُورَ الصُّبْحِ من آياتِهِ (٤)

(٢)

قَدْ أقَمْنَا العُمْرَ فى وَادٍ تَسِيرْ

بين ضِلْعَيْهِ خيالاتُ الهُمُومْ(٥)

وَشَهِدْنَا اليَأْسَ أسراباً تطيرْ

فوقَ مَتْنَيْهِ كعُقْبانٍ وَبُومْ(٦)

وَشرِبْنَا السُّقْمَ مِنْ ماءِ الغَدِيرْ

وأكلْنَا السَّمَّ مِنْ فجِّ الكُرومْ(٧)

وَلبِسْنا الصّبْرَ ثوبــاً فالتهَــبْ

فغدَوْنــا نــتردّى بالرّمَــادْ (٨)

وافترشْنـاهُ وِسادًا فانْقلَــبْ

عِندما نِمْنا هَشِيمًا وقتَــادْ (٩)

(٣)

يا بِلادًا حُجِّبَتْ منــذ الأزلْ

كيْفَ نرْجُوكِ؟ وَمنْ أين السّبِيلْ؟ (١٠)

أىُّ قفْرٍ دُونَها ، أىُّ جبَــلٍ

سُورُها العالِى ؟ ومَنْ منّا الدّلِيلْ

أسرابٌ أنْتِ ؟ أمْ أنْتِ الأمَــلْ

فى نفُوسٍ تتمـنّى المُسْتحِيــلْ

أقنامٌ يتهـادَى فى القلُــوبْ

فإذا ما اسْتَيقَظتْ ولّى المنَــامْ (١١)

أم غيُومٌ طُفْنَ فى شمس الغُــرُوبْ

قبلَ أنْ يَغرقْنَ فى بحرِ الظّــلامْ (١٢)

(٤)

يا بِلادَ الفِكْرِ يا مَهْدَ الأُلَــى

عبدوا الحـقَّ وصلّوا لِلْجمَـالْ (١٣)

ما طَلبْناكِ بِركْبٍ أوْ علَــى

مَتْنِ سُفْـنٍ أو بِخَيْلٍ أو رِحَـالْ (١٤)

لَسْتِ فى الشّرقِ ولا فى الغربِ ولا

فى جنوبِ الأرضِ أو نحو الشّمالْ

لَسْتِ فى الجَوِّ ولا تحت البحــارْ
لستِ فى السّهلِ ولا الوَعْرِ الحَرِجْ (١٥)
أَنْتِ فى الأرْواحِ أَنْوارٌ ونـــارْ
أنتِ فى صدرى فُؤادٌ يَخْتَلِـجْ (١٦)

* * *

أولا : التعريف بالشاعر :

جبران خليل جبران : لبنانى الأصل ، ولد فى بلـــدة (بشرى) بلبنان عام ١٨٨٣م ، وتلقى علومه فى مدرسة الحكمة ثم رحل إلى فرنسا ثم إلى أمريكا ، لكنه عاد إلى باريس عــام ١٩٠٨م ، وأخذ يدرس بها حتى حصل على إجازة التصويــر رحل بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأسس الرابطة القلمية للشعراء العرب المهاجرين فى نيويورك بأمريكـــا الشمالية ، وظل بها حتى توفى سنة ١٩٣١م ، ثم نقل جثمانــه إلى مسقط رأسه بلبنان .

وكان من رواد أدب المهاجر الذين حملوا راية التجديــد ودعوا إلى البساطة فى اللغة والأسلوب والتحرر من القوالـــب الشعرية القديمة ، وقد ترك آثارا أدبية عديدة ، وقد بــدأ نتاجه الشعرى يذيع فى البلاد العربية منذ عام ١٩٠٥م ومعظم نتاجه فى النثر ، وقد نالت كتبه شهرة عالمية ومن هذه الآثار : الأجنحة المكسرة ، ورمل وزبد ، والنبى ، والثائر ، وديــوان

العواكب ، وقد اتسم أدبه بعمق النظرة والتأمل فى الكـــون والحياة الطبيعية ، ووضح فيه الجانب الإنسانى ، وله كتــب بالإنجليزية ، ظهرت ترجمة حديثة لعدد منها بقلم الدكتــور : ثروت عكاشـــة .

ثانيا : مناسبة النص :

الجنة الضائعة حلم البشرية منذ خرجت من الجنة ومارست تجربة الحياة على هذه الأرض ، والدعوة إلى حياة أفضل وعالـم مثالى مصدر إلهام لعدد غير قليل من الفلاسفة والأدباء علـــى اختلاف العصور والأوطان واشتهر منهم أفلاطون فـــى الأدب الإغريقى فى " جمهوريته " الشهيرة ، والفارابى عند العرب فى " المدينة الفاضلة " ، وأبو العلاء فى رسالته الغفران ، وفى الأدب الأوربى ظهرت (الكوميديا الإلهية " لدانتى الإيطالى ، والجنة الضائعة لملتن الإنجليزى ، وما يزال الشعراء فـــى العصر الحديث يحومون حول هذا النبع منهم الشاعرة العراقية " نازك الملائكة " فى قصيدتها " يوتوبيا الضائعة " وهـــى كلمة أجنبية معناها " المدن الفاضلة " ـ من ديوانها : " شظايا ورماد " و " الأرض المحجبة " من ديوان : " قرارة الموجة " .

وجبران خليل شاعر مرهف الحس رقيق الوجدان قـــوى الشعور بما تعانيه البشرية من شقاء على الأرض ، وكان يتطلـع إلى الجنة الضائعة كغيره من شعراء الوجدان ويحلم بعالـــم مثالى تسوده المحبة ، وترفرف عليه السعادة وتغمر فيه البهجة

قلوب الناس ، عالم لا أثر فيه لحقد ولا مكان فيه لظلم ، كما تطلع إلى ذلك من قبله علماء العالم ومفكروه .

وهو في هذه القصيدة يرنو إلى ذلك العالم ، ويصور شقاء البشر في دنيانا ، ويتحدث عن العوائق والصعوبات التي تجعل وجود عالمه في دنيانا أمرا مستحيلا ، وتحول بيننا وبينه ، ثم يكشف في النهاية عن أن ذلك العالم المثالي ليس سوى فكرة تراود نفسه وتداعب أحلامه التي هامت بعالم الخير والحق والجمال .

ثالثا : معاني المفردات :

١ - شقيق : المراد شقائق النعمان وهي نبت زهره أحمر منقط بنقط سوداء . مفرده : " شقيقة " واستعمال لفظة : " شقيق " هنا بمعنى شقائق تجوُّز لا تبيحه قواعد اللغة .

٢ - أنّى يأتلف : كيف تتفق ، عنيق : قديم .

٣ - نقتفي : نتتبع .

٤ - من آياته : من العلامات الدالة عليه أو من صنعه .

٥ - الوادي : الأرض المنخفضة بين جبلين ، والمراد به هنا العالم الذي نعيش فيه .

٦ - متنيه : المراد هنا جانبا الوادي ، عقبان : جمع عقاب وهو طائر جارح ٧ - فج : الفج من الثمر ما لم ينضج .

٨ - نتردى : تردى الثوب لبسه وفي القاموس : تردت الجارية : توشحت ولبست الرداء كارتدت والمعنى نلبس ونرتدي .

٩ - الهشيم : نبت يابس متكسر، أو اليابس من الكلأ والشجر،
القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .
١٠- الأزل : القدم ، السبيل : الطريق .
١١- يتهادى : يتمايل والمراد يختال .
١٢- طفن في شمس الغروب : ظهرن في وقت الغروب .
١٣- الألى : الذين .
١٤- متن سفن : ظهرها ، رحال : جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .
١٥ - الوعر : المكان الصلب غير الممهد الذي يصعب فيه السير ، وهو المكان المخيف أيضا ، الحرج : الضيق .
١٦- يختلج : ينبض .

رابعا : المعاني والأفكار :

١ - اشتملت القصيدة التي نعرض لها على أربعة أفكار رئيسة هي : الدعوة إلى الارتحال ، ومبررات هذا الارتحال ، ثم مناجاة وحيرة وتلهف ، وأخيرا حقيقة البلاد المحجوبة . وثمت الفكرة الأولى كانت خواطر تتوارد على نفس الشاعر بحثا عن السعادة لنفسه وللبشرية ، فيلمح نور الفجر من بعيد فيهتف بنفسه أن تنهض ، وتستقبل الفجر الذي لاح ، ولننصرف عن هذه الأرض التي لا صديق لها بها ، والتي يستحيل علينا أن نتجاوب معها ، فنحن أشبه بنبات غريب يختلف زهره عن زهر كل نبات تنبته هذه الأرض . وليس من الممكن أن نتفق

الأضداد أو يتآلف الجديد مع القديم . ويقوى الأمل فى نفس الشاعر فيتخيله صبحا واضحا فيطلب من نفسه أن تتجه إليه وأن تسمع نداءه ويحثّها على اتباع خطواته ، فقد سئم حياة الفساد والظلام التى تحيط به من كل جانب . ومما يزيد من آلامه أن هذا الفساد يدعى أنه مصدرُ الخير كما يدعى الظلام أن نور الصبح من آياته ومن صنع يديه .

ب - وفى المقطع الثانى يترك الشاعر أسلوب الخطاب إلى الحديث بلسان المتكلمين وظاهر الحديث أنه يتكلم عن نفسه باعتبارها شخصا آخر يتمثله ، ولكن لعله هنا إنما يتحدث بلساننا نحن البشر ويصف ما نكابد فى دنيانا ، وقد قضينا العمر فى واد تسير خيالات الهموم فى دروبه وشهدنا اليأس أسرابا تطير فوق منتنيه مثل عقبان جارحة وبوم ناعبة ، وشربنا ماء الغدير لنرتوى ، فإذا بنا نشرب سقما يغزى أجسادنا وأكلنا كروم الأرض لنستمتع بها ، فإذا بنا نأكل سما يقطع أمعاءنا . وحين لجأنا إلى الصبر نستنجد به ونرتديه ثوبا يستر أحزاننا ومواجعنا ، التهب الثوب بنار شقائنا فتمرغنا على الأرض نتودى بالرماد . وحين جعلنا من الصبر وسادا نريح عليه أصلابنا المتعبة ، انقلب الوساد عندما رقدنا عليه هشيما يؤدى بوخزه الأجساد وشوكا يؤلم بشوكه الأبدان .

جـ - وفى المقطوعة الثالثة ، يتعلق الشاعر بالفجر الذى لاح فى رؤياه ، حيث يلمح أرضا جديدة مبرأة من شقاء أرضنا ، وبلادا بعيدة تنعم بالخير والجمال والسلام فيهتف

من أعماقه بكل حنينه وتشوقه إليها متأملا : كيف السبيل إلى هذه الأرض المحجوبة التى لا هم فيها ولا شقاء ، ومن منا نحن البشر يصلح لأن يكون دليلا يقود خطانا ، ويتخطى بنا القفر الموحش الذى يفصلنا عنك ؟ ويقتحم تلك الأسوار العاتية التى تحول بيننا وبينك ، فما أنت ؟ أأنت سراب ووهم ؟ أم أنت أمل يستحيل تحققه ؟ إ . أأنت حلم جميل لا يلبث أن يتبدد مع اليقظة ؟ أم أنت كالغيوم التى تبدو وقت الغروب ثم لا تلبث أن يبتلعها بحر الظلام ؟

د - وفى المقطوعة الأخيرة يصل الشاعر إلى إدراك كنه عالمه المثالى بعد أن تملكته الحيرة واستبد به القلق ، ويتأكد أنه لا وجود له إلا فى مخيلته ، ونبضات قلبه الذى يذوب شوقا إلى عالم المثل ، عالم الحق والخير والجمال فيقول أيتها البلاد التى عاشت ولا تزال تعيش فى أفكار الباحثين عن الحق والهائمين بالجمال ، من الفلاسفة والمصلحين والشعراء ، إننا ما حاولنا الوصول إليك فى جماعة أو على ظهر سفن أو بقوافل من خيل أو جمال ، لأنك لا توجدين على أرضنا فلست فى الشرق ولا فى الغرب ، ولا فى الجنوب ولا فى الشمال ولست فى أعالى الجو ولا فى أعماق البحر ، لست فى السهول ولا فى الجبال الأحراش ، إنما أنت فى أرواحنا أنوار تغمرها بالسعادة والرضا ، وفى حنايا نيران تذكى لهيب أشواقنا ، أنت فى صدورنا قلوب تختلج شوقا إلى عالم المثل ، وحنينا إلى آفاق الحق والخير والجمال .

خامسا : الدراسة الفنية :

١ ـ فى المقطوعة الأولى تسيطر على الشاعر عوامل ثلاثة : إحساس بشقاء البشرية ووحشتها ، وأمل فى عالم مثالى تسعد فيه وتنعم ، ومبررات تدفعه إلى الرغبة فى الارتحال عن دنيا الآلام ، وكأن الشاعر فى هذه القصيدة يبرر هجرته من وطنه بما قاسى فيه من متاعب وهموم ويتحدث عن تجربته الفاشلة حين ضاق بالحياة فى أرض آبائه وأصغى إلى نداء العالم الجديد يستحثه على الهجرة من ديار أمسى فيها غريبا ، ولم يعد له فيها مكان .

وقد اختار الشاعر لمعانيه الألفاظ الملائمة والعبارات الموحية ، فعبر عن عالمه الذى يرنو إليه بالفجر تارة والصبح أخرى ، ونحن نحس فى لفظة " الفجر " إيحاء بقرب زوال الآلام وفى كلمة " الصبح " إيحاء بالخلاص والإشراق والسعادة ، وفى قوله " هو ذا " إيحاء باستحضار صورة الأمل المرتقب فى ذهن الشاعر حيث أتى بالضمير مع الإشارة " ذا " الذى يشار به للقريب ، كما رمز للبشرية بنفسه بعد أن جرد منها شخصية أخرى ، وأخذ يوجه إليها الخطاب (قومى ، اسمعى ، هلمى ، كانا وفى هذا الرمز ما يوحى بمدى حبه للبشرية ، وقربه منها واندماجه فيها ، كما عبر عن دنيا الشرور والآلام بالمساء وهذا يوحى بقوة إحساسه بشقائنا ، وبعنف ما يغلف حياتنا من ظلام .

وفى مجال التعبير عن المبررات التى تلح عليه وتدفعه إلى الارتحال عن هذه الأرض إلى عالم المثل يذكر : " ننصرف عن ديار ما لنا فيها صديق " ، و " ما عسى يرجو نبات يختلف زهره .. " ، و " جديد القلب أنى يأتلف " ، وكلها عبارات توحى بالشعور بالوحدة والغربة والوحشة والضيق وانعدام الرجاء .

٢ - وفى المقطوعة الثانية : نجد الشاعر ثائرا متمردا يشكو ما يرى فى الحياة من متاعب ويأس لآلام البشرية ، ويعبر عما تعانيه وتكابده من شقاء ، فيأتى بألفاظ وعبارات تنضح ألما وتقطر مرارة كالهموم ، واليأس ، وعقبان ، وسموم ، والسقم ، والسم ، والتهب ، والرمال ، والهشيم ، والقتاد " .
وكلها ألفاظ توحى بالضيق والضجر ، والكلال والنصب والعالم الذى نعيش فيه : " واد تسير بين ضلعيه خيالات الهموم " ،
وفى هذا التعبير إيحاء بالفزع والرعب والحزن الشديد ، وفى كلمة " واد " إيحاء بكثرة الحدود والقيود التى تكبل حياة الإنسان ، وفى : " مشاهد اليأس أسرابا " ، و " يشرب السقم " ، و " أكل السم " ، إيحاء بأن الحياة على هذه الأرض صارت جحيما لا يطاق ، وفى " التهاب الصبر " إيحاء بعنف الآلام ، ومرارة المتاعب . وفى : " تتردى بالرماد " إيحاء بعدم جدوى الصبر أو نفعه وفى " انقلاب الصبر هشيما وقتادا " إيحاء بحدة الشعور بالقلق وعدم الراحة أو الاطمئنان .

٢- وفى المقطوعة الثالثة : تسيطر على جبران عاطفة الحب لعالمه المثالى ، والتعلق به واللهفة عليه ، والحيرة الشديدة فى البحث عنه . وقد عبر عن حبه له وتعلقه به بمناجاة تكشف عن ذلك فقال : " يا بلادا حجبت منذ الأزل " ، فالإنسان لا يناجى سوى من يحب ويتعلق به .

وفى تنكير كلمة " بلاد " ما يوحى بالتعظيم والإجلال ، كما عبر عن لهفته وشدة رغبته فى الوصول إليه بذلك التساؤل المُلِحّ : " كيف نرجوك؟ " ، من أين السبيل ؟ " ،من منا الدليل ؟ " وعن العقبات التى تحول بيننا وبينه بقوله : " أسراب أنت ؟ أو أنت الأمل فى نفوس تتمنى المستحيل ؟ ، أقتام يتهادى فى القلوب ... " ، أم غيوم طفن فى شمس الغروب ؟ ....البيت وكلها عبارات وألفاظ تعبر عن حبه وإجلاله لذلك العالم وتنم عن الحيرة والقلق الذى ينتاب قلب الشاعر .

٣- وفى المقطع الأخير من القصيدة تسيطر على الشاعر عاطفة الاستقرار النفسى لوقوفه على كنه عالمه وحقيقة جنته ، التى يحلم بها ، كما سيطرت على نفسه عاطفة الإعجاب بتلك البلاد وكان لهذا الاستقرار النفسى والإعجاب أثره فى اختيار ألفاظه وكلماته الملائمة لحالته مثل : الفكر ، الحق ، الجمال . ولكنه يثير فينا الشوق إلى الحقيقة التى استقر عليها ، فيكرر النفى فى العبارات مثل : ما طلبناك ، لست فى الشرق ، ولست فى الجو ، ولست فى السهل " حتى يصل إلى النهاية فيقرر الحقيقة ، وهى مثبتة فى البيت الأخير وكان فى كل ذلك موفقا غاية التوفيق .

سادسا : الأساليب والتصوير :

تعبر قصيدة جبران خليل جبران " البلاد المحجوبـــة "
عن إحساس الشاعر المرهف الحسي بتعاسة البشرية وعن تطلعه
إلى أرض مثالية تبدو لنا حلما عزيز المنال ، وقد جاءت أساليبه
معبرة عن أفكاره ومشاعره ، وقد نوع الشاعر في تعبيره فمـــزج
بين الأساليب الخبرية والإنشائية ، فمن الأساليب الخبريـــة

١ ـ في المجموعة الأولى : " هذا هو الفجر ، هوذا الصبح
والغرض منها التفاؤل والاستبشار ، وقوله " كانا من سماء يدعى
... البيت" والغرض منه التحسر وإظهار الضيق والســـأم
أما الأساليب الإنشائية فقد تنوعت ، فمنها الأمر في قولـــه :
" قومي ننصرف ، اسمعي ، هلمي ، نقتفي" والغرض منه الحـــث
والإثارة ، ومنها الاستفهام في قوله : " ما عسى يرجو نبات يختلف
البيت" والغرض منه النفي ، وقوله : " جديد القلب أني يأتلـف
... " ، والغرض منه الاستبعاد ، وكما عرف عن جبران فإنـــه
مصور مبدع وشاعر فنان ، وقد استخدم موهبته الفنية في مجالـي
التصوير والشعر فيما أورده من صور في كل مقطوعة من مقطوعات
القصيدة ، وسخر خياله الابتكاري في خلق صور كلية ذات
أبعاد واسعة تحيط بالجوانب المتعددة لكل فكرة من أفكـاره
وخياله التفسيري في خلق صور جزئية يتخذ من نسيجها مادة
لتلاحم أجزاء الصور الكلية وصقل المعنى الفني . فقد رسم في
المقطوعة الأولى صورة كلية رائعة تصور شقاء البشرية الـــتي

رمز إليها بنفسه ظلاما حالك السواد ، وعالمه المثالى فجرا يؤذن بزوال ذلك الظلام ، وصبحا مشرقا ينادينا ويستحثنا كى نرحل إليه ونقتفى خطواته ودوائمه ، من شعور بالوحدة والوحشة والغربة لاستبعاد أن ينعم فى دنيا الآلام ، مبررات للارتحال عن هذا العالم الملئ بالمتناقضات .

وقد استوفى الشاعر فى هذه الصورة الكلية كل العناصر الفنية اللازمة لجودتها وروعتها من لون يتمثل فى بياض الفجر ، وإشراقة الصبح واخضرار النبات ، وألوان الزهور وظلام المساء ، وصوت يتمثل فى دعوة الشاعر نفسه كى يتهيأ للرحلة : قومى واسمعى ، وفى نداء الصبح ، وادعاء المساء وحركة تتمثل فى : ننصرف عن ديار ، نقتفى خطواته ، فجاءت الصورة نابضة بالحياة ، مليئة بالحركة مثيرة للنفس .

وفى خلال تلك الصورة الشعرية نتج عن الخيال صور جزئية ففى البيت الأول : " الفجر " استعارة تصريحية ، فقد شبه أمله فى السعادة بعد الشقاء بالفجر الذى يأتى بعد ليل طويل ، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به ، وفى ذلك تجسيم للمعنوى وإبرازه فى صورة حسية هى صورة الفجر ، وذلك يزيد المعنى وضوحا ويوحى بحبه للنور . والاستعارة المكنية فى ياء المخاطبة فى قوله " قومى " حيث شبه نفسه بإنسان آخر مستقل عنه ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو توجيه الخطاب إليها ، وقد أفادت هذه الاستعارة تشخيص النفس .

وقوله: " ما لنا فيها من صديق " كناية عن الوحشة والغربة ، فقد أطلق اللفظ وأراد لازم معناه وسر جمالها الاتيان بالمعنى مصحوبا بالدليل ، وفي البيت الثاني تشبيه ضمنى ((وهو الذى لا يكون صريحا فى الكلام وإنما يلمح من سياق الكلام ، ويأتى بعد قضية تحتاج إلى دليل)) . فقد شبه الشاعر نفسه بين الناس الذين يختلف عنهم بالنبات الغريب بين نباتات أخرى . وسر جماله توضيح الفكرة برسم صورة لها تعين على التعليل لها وتقنع القارئ بوجهة نظره فيما قال .

والاستعارة التصريحية فى " الصبح " حيث شبه عالمه المثالى فى خلوه من الأكدار والهموم بالصبح فى إشراقه وصفائه ، والمكنية فى الضمير المستتر فى : ينادى ، العائد على الصبح حيث شبه هذا الصبح بما له من إغراء واستثارة بإنسان ينادى ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له ببعض لوازمه وفى ذلك تجسيم لاستثارة العالم المثالى للنفوس المفكرة ، وقد رشح تلك الاستعارة قوله " خطواته " وكذلك الاستعارة المكنية فى ياء المخاطبة فى قوله : " اسمعى ، هلمى " حيث شبه نفسه وقد جرد منها شخصا آخر بإنسان مستقل عنه ، والتصريحية فى " مساء " حيث شبه ما نحن فيه من عالم ملئ بالشرور والفساد بالمساء ، ثم حذف المشبه به وصرح بلفظ المشبه به ، والمكنية فى فاعل : يدعى ، وهو الضمير العائد على المساء ، حيث شبهه بإنسان مغالطا كثير الادعاء ، ثم حذف المشبه به ورمز له ببعض لوازمه وهو يدعى ، والتصريحية فى " نور الصبح " ،

حيث شبه الخير بنور الصباح ، ثم حذف المشبه وصرح بلفظ المشبه به ، والموسيقا فى هذه الأبيات تستمد مقوماتها من موسيقا الوزن والقافية واستخدام بعض الألوان البديعية غير المتكلفة كالطباق بين : "جديد وعتيق" ، و "مساء وصباح" لإكساب المعنى وضوحا ، إذ أن الجمع بين الشئ وضده فى إطار واحد من شأنه أن يجلو المعنى والفكرة ، والموسيقا الخفية التى نبعت من التلاؤم بين الألفاظ والمعانى ، والانسجام بين العبارات والتراكيب ، وإن كانت كلمة "شقيق" بمعنى شقائق النعمان ، لا تتفق وقواعد اللغة ، وإنما عبر بها كى يحقق الوزن والقافية .

٢ ـ وفى المجموعة الثانية نجد الأساليب كلها خبرية ، والغرض منها جميعا إظهار الأسى والحزن ، وتأكيد التعاسة والشقاء ، فالشاعر هنا ثائر متمرد يشكو ما يرى فى الحياة من متاعب وآلام ، ونلمس فى تعبيره صرخات الشكوى فى كل لفظ وعبارة ، فخيالات الهموم تسير فى وادى الحياة ، وتزحم كل مكان فيه ، واليأس يحلق وتراه العين أسرابا كئيبة مزعجة فى صور العقبان والبوم وألفاظ السقم والسم والهشيم والقتاد تقطر مرارة وتوحى بالعناء .

فهذه المعانى تناسبها الأساليب الخبرية حيث تستهم فى إبرازها وتوحى بمضامينها فى صورة جلية . وقد رسم فى هذه الأبيات صورة كلية للحياة التى نعيشها توضح ما فيها من أحزان وآلام ، وتجسم ما نحسه حيالها من ضيق وضجر ، فقد جعلها واديا مزدحما بالهموم غادية ورائحة تطير فوق أسراب

اليأس بوما وعقبانا ، والمياه تجرى ملوثة بالأمراض ، والفاكهة مختلطة بالسم ، والصبر ثوب ملتهب ، ووساد شائك ، فهى صورة شعرية حافلة بالحركة نحسها فى سير خيالات الهموم ، وتزاحم طيور اليأس ، وشرب السقم ، وأكل السم ، ولبس الصبر ، وافتراشه والتمرغ فى التراب ، وفيها لون اللهب وغبرة الرماد وخضرة الكروم ، وبريق الغدير ، وفيها صوت نسمعه فى نعاب البوم ، وخرير الماء ، وتكسر الهشيم .

وفى خلال هذه الصورة الكلية جاءت بعض الألوان البيانية كالاستعارة التصريحية فى " واد " فقد شبه الحياة التى نعيشها بواد محدود بضلعين وفيها تجسيم وإيحاء بالضيق والتزاحم ، والتشبيه البليغ فى قوله " خيالات الهموم " وهو من إضافة المشبه به للمشبه . والاستعارة المكنية فى " تسير خيالات الهموم " وهى تصور الهموم أشخاصا تسير وفيها تشخيص للهموم وإيحاء بتجديدها وانتشارها ، والاستعارة المكنية فى قوله " شهدنا اليأس أسرابا " ، و " اليأس أسرابا كعقبان وبوم " تشبيه يوحى بالضيق والتشاؤم ، وشربنا السقم " ، استعارة مكنية تصور السقم شيئا يشرب ، و " السقم من ماء الغدير " تشبيه ، فقد جعل ماء الغدير سقما ومرضا ، والتشبيه فى قوله " السم من فج الكروم " فقد جعل الفاكهة سما والتشبيهان يوحيان بقسوة الحياة ، وقوله " لبسنا الصبر " استعارة مكنية ، و " الصبر ثوبا " تشبيه بليغ ، و " التهب " كناية عن شدة الألم والعذاب ، و " نتردى بالرماد " استعارة مكنية صور فيها

الرماد رداء يلبس ، وقوله : " هشيما وقتادا " وهذه الصور الجزئية المتعددة مؤتلفة مع بعضها جرت فى نسق واحد ، وأوحت بما يعانيه الناس فى هذه الحياة وما فيها من متاعب وأحزان .

والموسيقا فى الأبيات تتكون من موسيقا الوزن والقافية ، والموسيقا الظاهرة باستخدام المحسنات البديعية التى أضفت على المعنى جمالا كالطباق بين "أقمنا ، تسير" والجناس الناقص بين "السقم والسم" ، ومراعاة النظيرين : "شربنا وأكلنا ولبسنا" ، والموسيقا الخفية النابعة من تآلف الكلمات وانسجام العبارات والتراكيب ، وتعاون الألفاظ وملاءمتها للمعانى ، ولكننا نقف عند كلمة "فج الكروم" لنسأل عن سر هذا التعبير ولماذا وصف الكروم بأنها فجة غير ناضجة بينما هو يريد أن يبين أن جميل الأشياء قبيح ؟ فكان الملائم أن يقول "حلو الكروم" . ولكن يظهر أن الشاعر وهو لبنانى يرى أن اللذة فى أكل الكروم الفجة على عادة أهل بلدة ، ومع هذا التخريج فإن التعبير بفج الكروم يكسب الأسلوب صفة الإقليمية ويتنافى مع الطابع الإنسانى الذى اتسمت به القصيدة .

٣ - أما أبيات المجموعة الثالثة : فالأساليب فيها كلها إنشائية ، لأن المقام مقام مناجاة وتلهف وحيرة ، وأسلوب الإنشاء أقدر على إظهار تلك الانفعالات ، ومن ذلك أسلوب النداء فى : يا بلادا حجبت منذ الأزل ، والغرض منه التعظيم وإظهار الحنين إليها ، والاستفهام فى قوله : كيف نرجوك ،

ومن أين السبيل للاستبعاد . وفى : " أى قفر دونهـــا " ، و " أى جبل سورها " ، للتهويل ،وفى " من منا الدليـــل " ؟ للنفى والاستفهام فى الأبيات ١٣، ١٤، ١٥ ، لإظهار اللهفة والحيرة ، فهى ألفاظ متناظرة استوحاها الشاعر من البيئـــة العربية ، وهى توحى فى مجموعها بالحيرة والتيه .

وقد رسم الشاعر فى هذه الأبيات خواطره وحيرته فى البحث عن الجنة الموعودة فى لوحة شعرية فنية ، فهو حائر أمام عالمه المثالى والعقبات التى تحول بينه وبين ذلك العالم ولا يعرف كيف يصل إلى جنته والقفر الشاسع والأسوار الشاهقة لا سبيـــل إلى التغلب عليها ولا دليل يمكنه من الاهتداء فى مجاهلهـــا ولا يدرى إذا كان ذلك العالم سرابا أوأملا مستحيل التحقق ، أو منا ما يولى عندما نستيقظ ، أو غيوما لا تلبث أن تزول بمجرد أن تلوح . وفى خلال ذلك نلمح اللون فى " قتام الغيـــوم " ، و " اصفرار شمس الغروب ، وسواد الظلام " ، والحركة فـــى : " مطلع القفر ، وتسلق السور ، وتهادى المنام ، وظهـــــور الغيوم واختفائها " .

والصوت فى : " مناجاته البلاد المحجوبة ،وتساؤ له عـــن الطريق إليها ، وفى تلاطم أمواج بحر الظلام " .

وقد نجح الشاعر فى رسم هذه الصورة الكلية التى جاءت فى خلالـــــــها صور جزئية مثل الكناية فى قوله : " حجبت منذ الأزل " فهو كناية عن عدم اهتداء المفكرين القدامى إليهـــا .

و " أى قفر دونها ؟ " كناية عن عدم القدرة على الوصول إليها ، والتشبيهان فى قوله : " أسراب أنت؟ " أم أنت الأمل .... " ، وكلاهما يوحى باليأس منها ، وكذلك قوله " أنت قتام " ، تشبيه وقوله : "فقتام يتهادى" استعارة مكنية ، وقوله : " أم أنت غيوم" تشبيه ،و " يغرقن" استعارة مكنية حيث صور الغيوم أشخاصا تغرق ، وفيها تشخيص وإيحاء بتراكم الظلام ووحشة الليل ،و " بحر الظلام " تشبيه بليغ ، وجميع هذه الصور فى هذا المقطع تتعاون فى تصوير الجو النفسى للشاعر المتلهف على تحقيق أمنيته ، كما تدل على حيرته وعجزه عن بلوغ أمله .

وقد شملت الموسيقا فى هذه المقطوعة موسيقا الوزن والقافية ، والموسيقا الظاهرة النابعة من استخدام بعض المحسنات البديعية مثل الطباق بين : " منام واستيقظت" وبين " يتهادى ، وولى" وبين "غيوم شمس ، وبين : شمس وظلام " و " طفن ويغرقن " ، ومراعاة النظير بين " قفر وجبل " و " دليل وسحاب " كما كانت الموسيقا الخفية وليدة التآلف بين الألفاظ والمعانى والتعاون بينها وبين الصور والأخيلة فى توضيح الفكرة .

٤ _ أما أبيات المجموعة الأخيرة : فقد تنوعت بين الخبر والإنشاء بعد أن سيطرت على الشاعر حالة من الهدوء والاستقرار النفسى ، فمن الأساليب الإنشائية النداء فى قوله " يا بلاد الفكر ، يا مهد الألى عبدوا الحق وصلّوا للجمال ، والغرض منها التعظيم والإجلال . وبقية الأساليب خبرية الغرض منها

التقرير والتأكيد . كما يصور جبران بلاده المحجوبة أملا للمفكرين وموطنا لطلاب الحق ومقدسي الجمال من الفلاسفة والشعراء والمصلحين .

وقد أبرز لنا ذلك من خلال ثلاث صور كلية ، ففي البيت الأول منها رسم في ذهنه صورة البلاد المحجوبة وجعلها كعبة تتجه إليها أفكار المصلحين ونلمح فيها حركة الفلاسفة وهم يعبدون ، وأصوات المصلين وهم يؤدون شعائر عباداتهم والصورة الثانية في الأبيات الثاني والثالث والرابع ـ في المجموعة الأخيرة ـ ترسم وسائل البحث عن الأشياء المجهولة في الأماكن البعيدة ، نلمس فيها حركة السفن والخيل ، ونرى الرحال المشدودة على ظهور الإبل ، وندرك الأبعاد المكانية للشرق والغرب ، والشمال والجنوب والمواد الطبيعية من هواء وماء ورمال وصخور .

والصورة الثالثة في البيت الأخير لحقيقة البلاد المحجوبة كما أدركها الشاعر ، فهي نور يضئ ونار تلهب النفوس والقلوب إلى استمرار السعي نحو عالم أفضل ولعلك تحس بجمال هذه الصورة وترى لهب النار ، وضوء النور ، وتسمع دقات القلوب في هياكل الصدور ، وقد اعتمد الشاعر في هذه الصور الكلية على صور جزئية منها : "يا بلاد الفكر" كناية عن العالم المثالي ، "الألى عبدوا الحق" كناية عن الفلاسفة ، وهي توحي بأهمية المعرفة ، و "الألى صلوا للجمال" كناية عن الشعراء وهي توحي بإخلاصهم للفَنّ وحبهم للجمال . وقوله :

" أنت أنوار " تشبيه يوحى باستمرار التطلع نحوها ، و " أنت أنوار ونار " تشبيه بليغ يوحى باشتمال الشوق إليها ، و " أنت الفؤاد " تشبيه بليغ أيضا يوحى بارتباط الحياة بها .

كما كانت الموسيقا نابعة من الوزن والقافية ، والموسيقا الظاهرة النابعة من استخدام بعض المحسنات البديعية مثل الطباق بين " الشرق والغرب " ، و " الجنوب والشمال " ، و " الجو وتحت البحار " ، و " السهل ، والوعر " والجناس الناقص بين " أنوار ونار " ، ومراعاة النظير بين " عبدوا الحق ، وصلوا للجمال " وبين ركب ، سفن ، خيل ، رحال " .

ثم الموسيقا الخفية النابعة من تلاؤم الألفاظ والمعانى والصور والأخيلة وتعاون هذه الألوان على جعل هذه القصيدة نشيدا عذبا ، وأهزوجة حلوة بنغماتها وشدة أسر موسيقاها وتقاسيمها الأخاذة .

نظرة عامة فى النص :

تمثل هذه القصيدة أدب المهاجر بكل خصائصه ومزاياه ، من رمز وتشخيص ونزعة تأملية فى الكون والطبيعة ، وشمول النظرة ، والبعد عن الزخارف اللفظية المتكلفة إلى عنايته بالمعنى وبساطة فى التعبير ، ولو اقتضى الأمر أحيانا الخروج على بعض قواعد اللغة العربية ، ومن تجديد فى مضمون الشعر وموسيقاه ، إلى وضوح فى الخيال ودقة فى التصوير ، فقد رمز الشاعر

بالبلاد المحجوبة لفكرة الحياة المثالية ، التى تتطلع إليها البشرية ، وعلى الرغم من أن الموضوع وهو البحث عن عالم أفضل ليس جديدا ، إذ طرقه كثير من المفكرين والفلاسفة والشعراء قديما وحديثا ، فإن " جبران خليل جبران" أخرجه فى ثوب جديد ، مزج فيه بين الشكوى والأمل ، وأضاف إليه كثيرا من أفكاره وتجاربه الذاتية ، وأخرجه إلى النطاق الإنسانى العام ، فهو يتحدث بلسان البشرية ويعبر عن آلامها وآمالها ويؤدى رسالة الشعر فى الحياة .

كما تمتاز أفكار " جبران" بالعمق والوضوح والتسلسل ، فكل فكرة تسلمك إلى الأخرى فى منهج نفس وعقلى محكم وينبغى أن ندرك أن إحساس " جبران " بشقاء الإنسانية وقسوة الحياة ، ليس دعوة انهزامية إلى اليأس ، أو تشاؤما من الحياة ، بل هى دعوة إلى التفاؤل والتطلع إلى عالم بعيد عن الشرور وتسوده المحبة ويرفرف عليه الإخاء والسلام .

كما وفق الشاعر فى التعبير عن أفكاره ومعانيه ، فاختار لها الألفاظ الملائمة والعبارات الموحية وإن جانبه التوفيق فى كلمتين اثنتين أولاهما كلمة : " شقيق " حيث استعملها مكان الشقائق ، فخرج على قواعد اللغة ، وهذه سمة من سمات أدب المهجر ، فقد منح شعراء المهجر أنفسهم الحرية فى الخروج على اللغة واستعمال ما يتفق مع تعبيرهم عن أفكارهم . والكلمة الثانية كلمة " فج" وقد أوضحنا وجهة النظر فى استعمالها

كما أجاد الشاعر فى تصويره إجادة تامة ، لأنه مصور بارع وفنان مبدع ، استخدم فى صوره لونى الخيال الابتكارى ، والتفسيرى ، فأورد صورا كلية ذات سعة وأبعاد مليئة بالحياة نابضة بالحركة ، متقنة الألوان ، وأورد صورا جزئية مؤكدة للمعانى موضحة لها ومجسمة للمعنويات ومشخصة لها ، واتخذ من صوره الجزئية مادة لتلاحم الصور الكلية وترابطها فأمتع بذلك القارئ وأشبع خياله وغذى وجدانه ، ونقل إليه تجربته ، وجعله ينفعل بموضوع النص كما انفعل هو به ، كما غلبت الدلالات الشعورية للكلمات والعبارات على دلالاتها العقلية .

كما جمع النص بين كل ألوان الموسيقا فى الشعر ، من موسيقا الوزن وموسيقا القافية التى تحققت فى شطرى كل مقطوعة من مقطوعات النص ، حيث جعل كل مقطوعة تتألف من خمسة أبيات وجعل للثلاثة الأبيات الأولى قافية موحدة وللبيتين الأخيرين فى كل مقطوعة قافية أخرى .

ثم الموسيقا الظاهرة التى منها استخدام بعض المحسنات البديعية ، والخفية وهى التى تنبعث من تكامل العناصر الفنية لأسلوب الشاعر من تلاؤم الألفاظ مع المعانى ، وتشبعها بالإيحاء نتيجة امتزاجها بشحنات عاطفية نابعة من وجدان منفعل ، وتوافق اتساق الكلام ، والمزج بين الأساليب الخبرية والإنشائية ، والتعاون التام بين اللفظ والمعنى والخيال والصورة على توضيح الغرض من النص ، وقد نوّع الشاعر فى قوافيه نتيجة لتموجاته النفسية ، فجاء النغم

الصوتى لكل مقطوعة معبرا عن الخلجات النفسية للشاعر مما أكسب النص جدة وطرافة وكان الشاعر مبدعا عندما اختار نظام المقطوعة لقصيدته ، وهو نوع من التجديد فى الشعر الحديث ، ومما زاد فى جمالها أنه جعل للشطر الأول قافية تميز الأبيات الثلاثة الأول عن البيتين التاليين فى كل مقطوعة ليعوض بذلك ما فقده من موسيقى القافية الموحدة .

كما يتضح فى القصيدة صفات أدب المهاجر من حديث الرمز والتأمل فى الحياة والطبيعة وتشخيص الطبيعة وإجراء الحوار معها ، والنزعة الإنسانية السامية كما تنتظم الأبيات وحدة فنية واضحة ذات موضوع وجو نفسى واحد معبر عنها بالصور الكلية فى كل مقطوعات القصيدة .

وتبدو شخصية الشاعر من خلال النص واضحة جلية ، فهو عميق الفكر واسع الثقافة إنسانى النزعة ، رقيق الوجدان ، ثائر على الأوضاع الفاسدة ، داع إلى المثل العليا ، حريص على الخير ، عاشق للجمال .

+++++++++

* * *

ثانيا : النثر الفنى فى العصر الحديث

لقد بدأت النهضة الأدبية متدرجة بطبيعة الحـــال ، فلم يقفز الأدب فجأة على الصورة التى نراها الآن وإنما ظـــل يتخلص رويدا رويدا من مظاهر الضعف التى غلبت عليه فــــى العصرين المملوكى (٦٥٦ هـ ـ ٩٢٣هـ) / (١٢٥٨م ـ ١٥١٧م) ، والعثمانى (٩٢٣ ـ ١٢١٣هـ / ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م) وعندمـــا نبحث عن أسباب النهضة الأدبية فى العصر الحديث ، نجدها قد بدأت مسايرة ليقظة الوعى القومى الذى استمد طاقاتــــه من عاملين أساسيين هما :

١ ـ الاتصال بماضينا الحضارى وتراثنا العربى العريق .

٢ ـ الاتصال بحضارة الغرب الحديثة .

وقد تم الاتصال بالغرب عن طريق البعثات والترجمـــــة والمستشرقين ومدارس الإرساليات ، كما تم الاتصال بماضينـــا العريق بطبع أمهات الكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة ، والعناية بدراسة الأدب العربى ، وكان لهذين العاملــــين أثرهما فى الأدب شعره ونثره . ففى النثر مال اللفظ إلـــى السهولة ، وقويت العبارة ، وبعدت عن التكلف والزخارف المصطنعة التى قيدته فى العهدين السابقين ، كما عمقـــت الأفكار وابتكرت الأخيلة ، ووجدت فنون لم تكن موجودة كالقصة والأقصوصة والمسرحية ، والمقالة العلمية والاجتماعية والسياسية وفى الشعر ظهرت أغراض جديدة كالشعر السياسى والاجتماعى

والقصص والمسرحى ، وظهر التجديد فى القالب الشعرى ، كالشعر الموسل والشعر الحر ، وأصبحت القصيدة وحدة مترابطة تدور أفكارها حول موضوع واحد .

وإذا كان الشعر العربى قد حقق تقدما ملحوظا فى أواخر القرن الماضى على يد باعث النهضة الشعرية : محمود سامى البارودى ، فإن النثر أخذ يتردد بين القوة والضعف حتى بداية القرن العشرين فأخذ النثر يخوض معارك حقيقية فى اتجاهين واضحين : اتجاه الجامعة الإسلامية ، واتجاه الجامعة الوطنية ، وقد ناصر كلا من الاتجاه جمع من الأدباء ، كما أخذت الأساليب السياسية والاجتماعية تتلاحق ، فظهرت دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة ودعوة فتحى زغلول إلى احتذاء النمط الغربى فى السلوك ، ومحمد فريد إلى تنظيم نقابات للحركة العمالية والتعاونية وضرورة الإصلاح الزراعى ، واسماعيل مظهر وسلامة موسى إلى الاشتراكية والتصنيع ، وكانت لهذه الدعوات صداها المؤثر فى كل آفاق العالم العربى كله ، كما نشبت معارك عنيفة بين القديم والجديد ، بين دعاة العامية والدعاة إلى الفصحى ، واستعمال حروف اللاتينية ، وغير ذلك من الدعوات الجديدة .

وكان لهذه الدعوات أثرها بلا شك فى شكل القالب النثرى واتجاهه إلى تجديدات وإضافات شملت الشكل والموضوع .

ثم تحدث التغييرات الهامة فى الكتابة النثرية من حيث الكم والكيف ، حيث تظهر القصة ، ويحتل المسرح موقعه الحقيقى

على خارطة الإبداع العربي ، وأخذت المقالة تفرض وجودها على القارئ في صور متعددة ، فمن مقالة سياسية إلى مقالة اجتماعية إلى مقالة صحفية إلى غير ذلك ، كما دخل مجال الكتابة لفيف من الكتاب العرب أصحاب الثقافة والملكات الفذة أمثال : محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، والعقاد ، والمازني ، وأحمد أمين ، والمنفلوطي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وسلامة موسى ، وتوفيق الحكيم ، وميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران ، وأحمد حسن الزيات ، وغيرهم ممن قادوا الحركة الأدبية في النثر الحديث على ضوء ما أفادوا من اتصالهم بالثقافات العربية أو الغربية أو كليهما معا .

كما شهدت هذه الفترة عديدا من الهزات الفكرية العاصفة التي أجبرت المثقفين إلى إعادة تقييمهم للموقف الثقافي كله ، فقد فجر كتاب " الخلافة وأصول الحكم " للشيخ علي عبد الرازق سنة ١٩٢٥م معركة ضارية ما زالت آثارها عابقة في آفاق حياتنا إلى اليوم ... كما فجر كتاب : " في الشعر الجاهلي " للدكتور / طه حسين سنة ١٩٢٦م معارك جدل عنيفة ، كما كان لكتاب : " اليوم والغد " لسلامة موسى سنة ١٩٢٨م آثاره الواسعة على الوجدان العربي والفكر الملتزم ، فلقد نادى علي عبد الرازق بمدنيّة الحكم في الإسلام وليس بدينيته ... ونادى طه حسين بمنهج الشك الديكارتي أساسا للحكم الأدبي وليس بمنهج التسليم وعلى هذا أخذ يشكك فيما ورد من شعر لشعراء العصر الجاهلي خاصة ويتهمه بالنحل والتزيد ، ونادى سلامة موسى

بتحرير المرأة ومدنية التعليم وديمقراطية الحكم ، وكانت كل هذه الدعوات بمثابة تحول خطير زلزل الحياة الأدبية وأشعل معارك الأقلام فاندفع الأدباء إلى المشاركة فى هذه المعارك مؤيدين أو معارضين وبذلك نشطت الحياة الفكرية نشاطا واسعا تعبيرا عن رغبة الإنسان العربى فى تطوير حياته أو تجاوز واقعه وتخطيه إلى حياة أفضل وواقع أكمل .

النص الأول

الصغيران : للرافعى

(١)

كانت الأرضُ قد عَرِيَتْ الا من أواخر الناس ، وطوارق الليل وبقيةٍ باقية من يقظة النهار تَحْبُو فى الطريق ذاهبة إلى مضاجعها ، فبينا أَمُدُّ عَيْنَيَّ وأُديرهما فى مُفتتح الطريق ومُنقطعه إذ انتفضْتُ انتفاضةَ الذُّعْر ، ووثبَتْ رجّةُ القلبِ بجسمى كلِّه ، كما تَثِبُ اللَّسْعَةُ بِمَلْسُوعِها ، وذلك حين أَبْصَرْتُ الطّفلين ....

(٢)

صغيران ضلّا من أهلهما فى هذا الليل ، يمشيان على حَيَدِ الطريق فى ذلّة وانكسار ، وتَحْسَبُ أقدامهما من البُطْء والتخاذل لا تمشى ، بل تَتَزَحْزَحُ قليلاً قليلاً فكأنّهما واقفان . أكبرهما طفلةٌ تَعُدُّ عُمْرَها على خَمْس أصابعها ، والآخر طفلٌ يبلغ ثلاث سنوات ينحدران فى أمواج الليل ، وقد نزل بهما

من الهمّ فى البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمن تطوّح به الأقدار إذا ركب البحر المظلم ليكشف عن أرض جديدة .

تتبيّن الخوف فى عيونهما الصغيرة ، وتراه يفيض منهما على ما حولهما ، حتى لتحسب كلاهما أنّ المنازل عن يمينه وشماله أطفال مذعورة ، ويتلفّتان كما تتلفّت الشاة الضالة عن قطيعها ، لا يتحرّك فى دمها بالغريزة إلا خوف الذئب ، ويتسحّبان معًا وراء الأشعة المنبثقة فى الطريق ، كأنّ أضواء المصابيح هى الطريق إلى قلبيهما الصغيرين ، منقطعان فى ظلام الليل ، وليس على الأرض أهنأ من ليل الطفل النائم ، فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل الضائع ؟

نامت أحلامهما ، واستيقظت أعينهما للحقائق المظلمة ، الفظيعة ، ضاعا من البيت ويحسبان أن البيت هو الضائع منهما .

طفلان فى وزن مثقالين من الإنسانية ، ولكنّهما يحملان وزن قناطير من الرعب .

يا من لا إله إلا هو .. مَنْ سواك لهاتين النملتين فى جنح هذا الليل الذى يشبه نقطةً من غضبك ؟ لقد أخرجتهما فى هذا الضياع مخرج أصغر موعظة للعين تنبّه أكبر حقيقة فى القلب ، وعرضت منهما للإنسانية صورةً لو وفّق مخلوق عبقرىّ فرسمها ، لجذب إليهما كل أحزان النفس .

صورة الحب يمشى متساندًا إلى صدر الرحمة ، فى طريق

المُصادفة المجهولة من أوله إلى آخره وعليهما ذلُّ اليُتم من الأهل ، ومسكنةُ الضَّياع بين الناس ، وظلامُ الطبيعة وكآبتُها .

رأيت الطفلة وقد تنبَّهتْ فيها لأخيها الصَّغيرِ غريزةُ أُمٍّ كاملة فهي تشدُّ على يده بيديها معا ، كأنها وقد علمت أنها ضائعةٌ ، تحاول أنْ يَطْمَئِنَّ أخوها إلى أنَّه معها ، ولن يضيع وهو معها ، فيا لرحمة الله ! ! .

وقد أَسْنَدَتْ مِنْكَبَه إلى صدرها وهي تمشي ، فلا أَدْرِي إنْ كان ذلك لِتَحْمِل معه بعضَ تَعَبِه ، فلا يتساقط أو ليكون بها أكبرَ من جسمه الضَّئيل فلا يخاف ، أو لأنَّها حين لم تستطع أن تُفْهِمَه ما في قلبها بلغة اللسان ، أفاضته على جسمه بلغة اللَّمس ، أوْ لا هذا ولا ذاك ، إنما هي تستمد من رجولته الصغيرةِ حمايةً لأنوثتها بوحْي الطبيعةِ التي رسخت فيها .

ولما وَقَفْنَا بإزائهما كان هذا الصغير يُقلِّبُ في وجوه النَّاس نَظَراتٍ يتيمةً ترتدُّ على قلبه آلامًا لا رحمةَ فيها ، إذ يشهدُ وجوهًا كثيرةً ليس لها ذلك الشكلُ الإنسانيُّ المحبوب ، الذي لا يعرفه الطفلُ من كل خَلْقِ الله إلا في اثنين : أُمِّه وأبيه .

* * *

أولا : التعريف بالكاتب :

مصطفى صادق الرافعى ، ولد سنة ١٨٨٠م فى قرية "بهتيم" إحدى قرى محافظة القليوبية لأسرة سورية الأصل ، وقد نبغ فى أسرته كثير من رجال العلم والأدب والسياسة ، وكان أبوه قاضيا شرعيا نوجهه إلى الثقافة العربية والإسلامية فعوضه ذلك عما فاته من الدراسة فى دور التعليم ، إذ لم يتم دراسته لمرضه ، وقد أكب على مكتبة أبيه ، وأخذ يقرأ فيها ويتزود من علومها ومعارفها وقد استقر فى طنطا حيث كان يشغل وظيفة كاتب فى إحدى المحاكم بها ، وكان اتجاهه الأدبى فى أول حياته إلى الشعر ، ثم تحول عن الشعر إلى النثر حتى أصبح من كتاب الطبقة الأولى ، وله ديوان شعر من ثلاثة أجزاء وكتابه القيم : تاريخ آداب العرب ،فى ثلاثة مجلدات ، و "رسائل الأحزان" ،و "السحاب الأحمر" و "أوراق الورد" و "حديث القمر" و "المساكين" و "إعجاز القرآن" و "تحت راية القرآن" ، وجمع مقالاته التى كان ينشرها فى مجلة الرسالة بين سنتى ١٩٣٣ ، ١٩٣٧م فى كتاب "وحى القلم" الذى يقع فى ثلاثة أجزاء ، وكانت وفاته سنة ١٩٣٧م .

والرافعى من الكتاب المحافظين وهو فى الطبقة الأولى بين أدباء العرب فى العصر الحديث ، وله أسلوبه المتميز بما يشيع فيه من روح دينية ، وقدرة على ابتكار المعانى وتوكيدها والعمق فيها مما يؤدى أحيانا إلى الغموض ، كما تمتاز ألفاظه بالقوة والجزالة وعباراته عربية سليمة محررة اللفظ دقيقة الاختيار

وأسلوبه ليس بالمرسل ولا بالمسجوع المقيد بقيود السجع أو التكلف الشكلي باللفظ. راجع عنه: وحي القلم للرافعي ، وقصة الأدب في مصر للدكتور/ خفاجي ، الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور / شوقي ضيف) .

ثانيا : معاني المفردات :

أ - عريت : خلت ، طوارق : جمع طارقة وهي التي تخرج ليلا ، بقية من يقظة النهار : أثر من الحركة التي في أول الليل بعد نشاط النهار ، مفتتح الطريق : أوله ، منقطعة : نهايته ، رجة القلب : هزته واضطرابه ، ووثبت رجة القلب بجسمي : جعلت جسمي ينتفض . اللسعة : لدغة العقرب والحية ، كما تثب اللسعة بملسوعها : أي كما ينتفض الملسوع من أثر اللسعة .

ب - حيد الطريق : جانبه ، التخاذل : الضعف والإعياء ، أمواج الليل : ظلامه ، تطوح به الأقدار : تلقي به بعيدا ، يفيض: يسيل وينتشر ، قطيعهما : القطيع الطائفة من الغنم ، يتسحبان يجران قدميهما ، نامت أحلامهما : ذهبت سعادتهما ، مثقالين : مُثنّى مثقال وهو أصغر وحدة في الموازين حوالي درهم ونصف والمراد أنهما صغيران .

ج - جنح الليل : ظلامه ، مخرج أصغر موعظة للعين : كإخراج موعظة صغيرة إذا قيست بغيرها ، أكبر حقيقة في القلب : المراد الحب والرحمة ، متساندا : معتمدا ومستندا .

صورة الحب : المراد الأخ ، صورة الرحمة : المراد الأخــــت ، تشد على يده : المراد تثبيته وتقويه ، منكبه : كتفه ، بإزائهما : فى مقابلهمـــا .

ثالثا : شرح النص:

هذا النص جزء من مقال أدبى من النثر الفنى الخالـــص الذى يشبه الشعر فى قوة عاطفته وخياله الرحب . وقد جـــاء وليد تجربة شعورية صادقة فى جو نفسى متقد العاطفة .

فقد كان الرافعى عائدا إلى منزله بعد سهرة مع أصدقائه فى مقهى عند منتصف الليل فرأى الصغيرين ضائعين فى سكـون الليل وظلامه ، وهو أب له أطفال يحبهم ويشفق عليهم من مثل هذا الموقف ، فتأثر لمنظر الطفلين الضائعين تأثرا شديـــدا وثارت عاطفته واهتزت مشاعره فكتب هذا المقال الذى يعـــبر فيه عن مشاعره ويرسم هذا المشهد بريشة الفنان العبقـــرى . وهذا النص من كتاب " السحاب الأحمر " .

وقد اشتمل النص على ثلاثة أفكار رئيسة هى : تأثر الكاتب لمرأى الطفلين ، تصوير حال الطفلين ، العبرة والعظـــــة من هذا الموقف .

فتحت تأثر الكاتب بمرأى الطفلين نراه يعرض فى وصـــف تفصيلى بداية المشهد الذى أثار شعوره ، وحرك وجدانـــه ، وينقلنا معه إلى مكانه وزمانه ، فيصور مسرح الحادثة فى دقـــة

وإحكام ، فالشارع خال تقريبا إلا من بعض الناس الذين تأخروا في العودة إلى بيوتهم مثله ، والسكون مخيم على المنطقة إلا بقية من حركة توشك أن تنتهى . والكاتب في طريقه إلى المنزل يلقى ببصره على امتداد الشارع الخالى ويقلب عينيه بين بدايته ونهايته ، فيروعه منظر الطفلين ، وينتفض جسمه كله كما ينتفض الملسوع من الألم اللسعة ، لأنه رأى منظرا لم يكن يتوقعه .

ثم ينتقل الأديب إلى تصوير حال الطفلين الصغيرين وقد ضلا الطريق فيحدد عمرهما ، ويصف ما حل بهما من تعب وإعياء ويحلل مشاعرهما التى اختلطت فيها مشاعر الهم والشقاء بمشاعر الخوف والفزع والقلق والاضطراب ، فصارا يريان الأشياء من حولهما على غير حقيقتها من شدة الرعب ، فهما تائهان عن أهلهما في هذا الليل الموحش ، يمشيان على جانب الطريق في ذلة وضعف وانكسار ، وأكبرهما طفلة في الخامسة من عمرها ، والآخر طفل في الثالثة من عمره يلفهما ظلام الليل ، وقد امتلأت نفوسهما بالخوف من المصير المجهول ، وزاغت نظراتهما ودارت بهما الأرض حتى خيل إليهما من شدة الخوف أن المنازل حولهما أطفال مذعورة مثلهما ، وكانا يتلفتان تلفت الشاة الشاردة عن قطيعهما الخائفة من الذئب ، ويتقدمان في بطء وحذر في اتجاه المصابيح لعل ضوءها يكشفهما لمن يبحث عنهما ، لقد انقطع هذان الطفلان في ظلام الليل فأحسا بالضياع والشقاء في هذا الوقت الذى يسعد فيه الأطفال بالنوم

الهنيئ ، تنبهت فى نفسيهما كل أحاسيس الخوف ، ومشاعر القلق ، وتلاشت كل معانى الأمن والأحلام السعيدة حتى خيل إليهما أن البيت هو الذى ضاع منهما ، إنهما صغيران غاية الصغر ولكنهما يحملان من الرعب والفزع مالا قبل لهما بحمله .

وفى المشهد الثالث من هذا الموقف الشاجى يتضرع الكاتب إلى الله تعالى أن يدرك برحمته هذين الطفلين فيردهما إلى أهلهما ، وأن يحل مشكلتهما ، فهو الذى أخرجهما إلى هذا الضياع ، ليثير فى نفوسنا عاطفة الحب والرحمة التى يعجز الرسام العبقرى أن يجسمها فى صورة ، ولو استطاع ذلك لكانت هذه اللوحة معبرة عن جميع مشاعر الحزن ، فهى صورة الحب الذى يمثله الطفل يمشى مستندا إلى صدر الرحمة التى تمثلها الطفلة فى الطريق المجهول الذى لا إرادة لهما فيه ، يبدو عليهما الذل والضياع ، ويلفهما ظلام الطبيعة فى الليل بجو كئيب موحش ، ويتابع الكاتب تأملاته فيرى الطفلة وقد تنبهت فيها غريزة الأمومة الناضجة تمسك يد أخيها بيديها الاثنتين كأنها تشجعه وتطمئنه فهو بين يديها وفى رعايتها ، ولن يضيع وهو معها ، كما يرها وقد أسندت كتفه إلى صدرها وهى تمشى وكأنها تخشى عليه أن يسقط من التعب والإعياء ، أو لتشعره أنه بانضمامها إليه قد كبر وقوى فلا يصح أن يخاف ، أو لأنهما وقد عجزت عن التعبير باللسان عما فى قلبها عبرت باللمس وربما كان الاحتمال الأقوى أنها بوحى من طبيعتها تستمد من رجولته الصغيرة حماية لأنوثتها ، ويقترب الطفلان من الكاتب ويقفان أمامه كأنهما اسْتَشْفَّاها بنفسه

من العطف والشفقة ، وكان الصبى يقلب فى وجوه الناس نظرات يبدو فيها الذل باحثا عن أبويه فترتد هذه النظرات الفاشلة كأنها سهام مؤلمة موجهة إلى قلبه ، فهو يرى وجوها كثيرة لا يعرفها ، ولا يرى بينها أبويه اللذين هما أحب الناس إلى قلبه .

رابعا : الدراسة الفنية :

١ - التعبير : رأى الكاتب طفلين صغيرين يمشيان فى جوف الليل فى طريق خلا من المارة فتأثر لهذا المنظر ، واستولت عليه عاطفة الأسى والفزع والإشفاق ، وقد ظهر أثرها فى اختيار الألفاظ الملائمة للجو النفسى للكاتب مثل : "عريت الأرض" "فمرّى الأرض" "وخلوّها من المارة" يوحى بالخوف وفقد الأمن والاطمئنان ، وقوله "تحبو" توحى بالتعب وشدة الإرهاق و "أمد عينى" "وأديرهما" يوحى بالقلق والاضطراب ، "انتفضت" توضح فزع الكاتب ورعبه واضطرابه ، وفى إضافة الانتفاضة إلى الذعر "انتفاضة الذعر" بيان لنوع الانتفاضة وأن الذعر هو الباعث لها والعطف بالواو فى قوله "ووثبت رجة القلب" الخ .. بيان لهول المفاجأة وشدة أثرها حيث جمعت بين انتفاضة الذعر ورجة القلب وقدم الأثر وهو الانتفاضة على سببها وهو رؤية الطفلين ليحدث التأثير والتشويق .

وقوله : "صغيران" تعبير يستدر العطف وتنكيره يوحى بالنزعة الإنسانية العامة ،و "ضلا" يثير الشفقة ،و "يمشيان

فى ذلة وانكسار " تبين حالهما وتثير الأسى والألم عليهما ،
و " تتزحزح " ترسم عجزهما وشدة تخاذلهما " و " ينحدران "
توحى بفقد السيطرة على نفسيهما من شدة الإعياء والتعب ،
ولعلنا نلاحظ عدم دقة الكاتب فى تعبيره بقوله " ينحدران " بعد
وصفه للطفلين بالبطء والتخاذل كأنهما واقفان ، فالانحدار
يدل على السرعة ويمكن أن نقول : إنه أراد السير بدون إرادة
أو أن ميله إلى المبالغة فى وصف ضياعهما هو الذى دفعه
إلى التعبير بقوله : " ينحدران " للدلالة على الانسياق بدون
إرادة . وقوله " أمواج البحر " يفيد ما يتعرضان له من خوف
ورهبة ، و " تطوح به الأقدار " تكشف عن الاستسلام والخضوع
للمصير المجهول ، و " يفيض منهما " تشعر بشدة الخوف
وتجاوز احتمالهما له ، وقوله " حتى ليحسب كلاهما أن المنازل
عن يمينه وشماله أطفال مذعورة " ويتلفتان " و " يتسحبان "
و " منقطعان " " الطفل الضائع " يوحى بفقد الأمن وشدة
الشقاء والفزع الشديد .

وقوله " نامت أحلامهما " و " الحقائق المظلمة " يوحى
بفقد السعادة والتعرض لظروف وقسوة الزمن ، وقوله :
" طفلان فى وزن مثقالين يحملان وزن قناطير الرعب " يوحى
بإثارة الشفقة والعطف عليهما .

وفى المنظر الثالث من هذه الحادثة نجد الكاتب تسيطر
عليه نزعة إنسانية سامية يغذيها روح دينى دافق ، نلمس ذلك
فى تعبيره الصارخ : " يا من لا إله إلا هو .. " و " أصغر موعظة

للعين تنبه أكبر حقيقة فى القلب ... " و " عرضت منها للإنسانية صورة لو وفق مخلوق عبقرى فرسمها لجذب إليها كل أحــــزان النفس " .

واختار كلمة " النملتين " ليفيد ضعفهما وصغرهما وشـــدة حاجتهما إلى العطف ، وقوله : " هذا الظلام الذى يشبـــه نقطة من غضبك " يوحى بشدة الرهبة ، وعبر بقوله : " فى هذا الضياع " ليبين أنه هلاك مؤكد ، والتنكير فى " مخلوق عبقــرى " يفيد أن تأثير صورتهما لا يقتصر على فنان دون آخر بل يعـــم الجميـــع .

وقد وفق الكاتب فى إطلاق الحب على الأخ والرحمة علـى الأخت ، فكل صفة من هاتين أقرب إلى صاحبها وأنسب فــى التعبير عنه ، وتتضح قدرة الكاتب فى التحليل والتعليـــل فى رسم صورة صادقة لنفسية الصغيرين تكشف عن مشاعرهمـــا وخلجات قلبيهما ، فحين أراد إظهار عطف الصغيرة على أخيها قال : " تنبهت فيها لأخيها الصغير غريزة أم كاملة " وفـــى التعبير بقوله : " تشد على يده بيديها " تجسيم لحرص الأخت على إشعار أخيها بالأمن والاطمئنان . وكرر " إنه معهـــا " ليؤكد الطمأنينة ، وقوله " أسندت منكبه إلى صدرها " تعبـير دقيق عن مدى التلاحم بينهما ، وقد ظهرت قدرة الكاتـــب فى الغوص على المعانى وتوليدها وابتكارها فى قولـــــه :
" وقد أسندت منكبه إلى صدرها ، وهى تمشى فلا أدرى إن كان ذلك لتحمل معه بعض تعبه فلا يتساقط أو ليكون بها أكثـــر

من جسمه الضئيل فلا يخاف .. " وتستمر عاطفة الأسى والإشفاق واضحة جلية تعكسها تعبيراته : "يقلب في وجوه الناس" حيث يوحى هذا التعبير بالحيرة والقلق ، وقوله : " نظرات يتيمة " يوحى بالانكسار وشدة الألم .

٢ ـ الأساليب :

استعان الكاتب ببعض الأساليب الإنشائية التي كان لها أثرها في توضيح الفكرة وإظهار عاطفة الأديب ، فقوله : " فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل الضائع " استفهام للنفى وقوله " يا من لا إله إلا هو .. " نداء للاستغاثة ، وقوله " من سواك لهاتين النملتين ؟ " أسلوب استفهام للنفي والاستعطاف وقوله " فيا لرحمة الله " نداء أفاد التعجب .

ومن الأساليب : التقديم في قوله " وعليهما ذل اليتم " ويفيد التخصيص واستغراق مظاهر الشقاء والتعاسة لكل ملامح وجهيهما وسماته . وقوله " لا يتحرك في دمها بالغريزة إلا خوف الذئب " و " لا يعرفه الطفل إلا في اثنتين " أسلوبا قصر أفادا التخصيص ، وبقية الأساليب خبرية جاءت في الفقرتين الأولى والثانية للتقرير وإظهار الإشفاق والشعور بالألم ، وفي الفقرة الثالثة لإظهار الشفقة والرحمة .

خامسا : التصوير :

١ - هذا النص وإن كانت فكرته يسيرة ، إلا أنها تحمل معانى إنسانية رائعة وتصور عواطف الطفلين الضائعين وآثار الخوف عليهما ، وقد استطاع الأديب الرافعى أن يجسم هذه المشاعر وأن يجعلنا نحس بها ونشاركه الخوف والحدب على هذين الطفلين وقد أجاد إجادة بارعة فى الاستعانة بالصور الخيالية الرائعة .

ففى الفقرة الأولى من النص رسم لوحة كاملة للموقف الذى رأى فيه الطفلين يتجلى فيه ظلام الطبيعة وكآبتها وقلة الحركة وإعياؤها ، وخلو الطريق من بدايته إلى نهايته ، وفى خلال هذه اللوحة جاءت صوره الجزئية التى تبرز عاطفة الأسى والخوف ، والإشفاق أو لتؤكدها حينا آخر كالاستعارة المكنية فى "عريت الأرض" فقد شبه الأرض بإنسان وحذفه وأتى بصفة من صفاته وهى العرى ، ويصح أن تكون استعارة تصريحية فقد شبه خلو المارة من الناس بالعرى ، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به وفيها تشخيص وإيحاء بالسكون والوحشة ، وفى : "بقية من النهار تجفو فى الطريق ..." استعارة مكنية ، فقد شبه الحركة الباقية من يقظة النهار ونشاطه بطفلة صغيرة تزحف ، وفيها تشخيص وإيحاء بالضعف والخمول ، و "ذاهبة إلى مضاجعها" ترشيح للاستعارة يقويها ، وقوله : "انتفاضة كانتفاضة الذعر" تشبيه يفيد مدى تأثر الكاتب برؤية الطفلين ، وكذا قوله : "وثبت رجة القلب بجسمى كله كما تثب

اللسعة بملسوعها " تشبيه بجامع السرعة والاضطراب فى كل .

وقد استعان الأديب أيضا ببعض المحسنات البديعية التى أضفت على المعانى لمسة من التذوق الجميل ، مثل الموازنة بين : " أواخر الناس وطوارق الليل " وهى تعطى نغما موسيقيا يكسب الكلام إيقاعا جميلا ، والطباق بين : "مفتتح الطريق ومنقطعه " وقد أفاد هذا الطباق الشمول .

٢ ـ وعندما تحدث الكاتب عن بطلى الحادثة صورهما أجمل تصوير مستعملا ريشة رسام ماهر ، فهما يمشيان على جانب الطريق فى تخاذل وبطء ينحدران ، وفى هذا ما يوحى بالسقوط والخطر المحدق بهما والليل يلفهما ونظراتهما زائفة والرعب يملأ قلبيهما ، وقد استعان بالصور الجزئية كقوله : " كأنهما واقفان " تشبيه يوضح ما نالهما من تعب وإعياء ، وفى " أمواج الليل " استعارة مكنية فقد شبه الليل المخيف بالبحر وحذف المشبه به ودل عليه بشئ من خصائصه وهو أمواج ، وفيها إيحاء بالرهبة والخطر ، وقد تأثر فيها الكاتب بقول امرئ القيس:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدولَهُ

علىَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِى

وفى قوله : " ينحدران " استعارة مكنية ، فقد شبه الطفلين بصخرة مدفوعة من قمة عالية وحذف المشبه به وأتى بصفة من صفاته وهى : " ينحدر " . وقد أفادت الاندفاع فى السير وعدم التمكن من الاهتداء . وقوله : " نزل بهما من الهم فى البحث عن بيتهما ، ما ينزل مثله بمن تطوح به الأقدار إذا ركب

البحر المظلم ليكشف عن أرض جديدة " تشبيه تمثيلي يصور هموم الصغيرين بهموم ربان سفينة لعبت به الأقدار ودفعته ليركب البحر المظلم ، تائها لا يعرف له وجهة ، وكأنه يبحث عن أرض جديدة ، ويستمر الكاتب في تجسيم خوف الطفلين ، فيجعلهما خائفين مرتعدين ملأهما الفزع والرعب وزاد وفاض حتى عم المنازل التي تحيط بهما وكأنهما الشاة التائهة عن قطيعها يتمثل الذئب لها في كل مكان ، وفي قوله : " تطوح به الأقدار " كناية عن فقد الأمل وعدم الاهتداء ، وقوله " تتبين الخوف " استعارة مكنية ، فقد شبه الخوف وهو الأمر المعنوى بشئ حسي يرى ويتبين وحذف المشبه به ورمز إليه بشئ من صفاته ، وقد جسمت المعنوى وبرزته في صورة حسية مشاهدة ، و " ينسحبان " استعارة تصريحية ، شبه بطء السير بالتسحب وقد أفادت البطء وشدة الخوف .

و " الأشعة المنبثقة في الطريق " استعارة مكنية فقد شبه الأشعة بالماء المندفع وحذف المشبه به ودل عليه بشئ من لوازمه وهو " الانبثاق " ، " وكأن أضواء المصابيح هي الطريق تشبيه وهو يوحي بارتباط أصلها بالأضواء ، فهي التي ترشدهما أو ترشد أهلهما إليهما . وقوله " منقطعان في ظلام الليل " كناية عن وحدتهما ،و " ليس على الأرض أهنأ من ليل الطفل النائم " استعارة مكنية ، شبه الليل بطعام أو شراب لذيذ وحذفه وأتى بصفة من صفاته . وقد وضحت المعنى وأبرزته . و " أشقى من الليل الطفل الضائع " مجاز مرسل علاقته الزمنية فقد أطلق الليل وأراد ما يحل به . وفي " نامت

أحلامهما " استعارة مكنية فقد شبه أحلامهما وآمالهما وآمالهما بإنسان تخلى عنهما وراح فى نوم عميق وتركهما وحيدين وحذف المشبه به ودل عليه بشئ من صفاته وهو " نامت" وسر جمال التشخيص وفيها إيحاء بالشقاء واليأس ،و " الحقائق المظلمة " استعارة مكنية تصور حقيقة الضياع والشقاء ليلا مظلما مخيفا وفيها إيحاء بالانقباض والكآبة ،و " يحسبان أن البيت هو الضائع منهما " كناية عن سذاجة الطفولة وبراءتهما ومثلها : " طفلة تعد عمرها على خمس أصابعها " فهو كناية عن عدم القدرة على الإيضاح عن نفسها لصغرها " طفلان فى وزن مثقالين " كناية عن صغرهما وضآلة وزنهما ، " قناطير من الرعب " تشبيه بليغ ، فقد شبه الرعب بالقناطير،و " يحملان وزن قناطير من الرعب " استعارة مكنية ، فقد شبه الرعب بالقناطير وهو شئ مادى ثقيل يحمل وحذفه وأتى بصفة من صفاته وهى " يحملان " وقد أبرزت المعنوى فى صورة حسية وقد أضفى الكاتب على صوره مسحة من الجمال ببعض المحسنات البديعية مثل : طباق السلب بين قوله : " يمشيان على حيد الطريق ..... ، لا يمشيان " . وقد وضح هذا الطباق البطء الشديد والطباق بين " يمينه وشماله " ،و " أهنأ وأشقى " و " نامت واستيقظت " ، وقوله " طفلان فى وزن مثقالين يحملان وزن قناطير من الرعب " مقابلة أبرزت الفرق بين الموقفين فزاد ذلك المعنى وضوحا .

٣ – وفى المشهد الثالث من هذه اللوحة الفنية يرسم

الكاتب بقلمه لوحة فريدة للمعانى الإنسانية المجسمة فى منظر الطفلين وهما يمشيان متساندين يمثلان الذل والضياع وحولهما الظلام الكئيب المشحون بالمخاوف ، كما رسم لوحة أخرى لحيرة الطفل وآلامه وهو يقلب بصره فى وجوه الناس فيفشل فى العثور على والديه ، وفى خلال ذلك جاءت صور جزئية مثل : " النملتين فهى استعارة تصريحية أفادت مدى صغرهما مما يثير الشفقة والرأفة فى نفوس القراء ، و " فى جنح الليل " الذى يشبه نقطة من غضبك " تشبيه يوحى بالرهبة ، و " أخرجتهما مخرج أصفر موعظة للعين " تشبيه بليغ يوضح ضآلتهما التى لا تلفت النظر ، و " أكبر حقيقة فى القلب " كناية عن الحب والرحمة ، و " تنبه أكبر حقيقة فى القلب " استعارة مكنية تصور الرحمة المستكنة فى القلب إنسانا يتنبه بعد غفلة وفيها تشخيص وإيحاء بقوة التأثير ، و " لجذب إليهما كل أحزان النفس " استعارة مكنية تصور الأحزان جسما يجذب وفيها تجسيم وإيحاء بقوة التأثير ، و " الحب والرحمة " كل منهما مجاز مرسل عن صاحبه علاقته الحالية ، وقوله " صورة الحب يمشى متساندا " إلى صدر الرحمة " استعارتان مكنيتان ، فقد شبه الحب بإنسان والرحمة بإنسان ، وحذفه وأتى بشئ وصدر ، وقد أبرزت الحب والرحمة فى الصورة الحسية فأفادت عظمهما .

و " اليتيم " استعارة تصريحية و " كآبتهما " استعارة مكنية تصور الطبيعة إنسانا كئيبا حزينا و " تنبهت فيها غريزة أم " استعارة مكنية تصور غريزة الأمومة الكامنة فى نفس الطفل

إنسانا كان نائما وتنبه ، وفيها تشخيص وإيحاء بقوة شخصيته الطفلة ، و " تشد على يده بيديها معا " كناية عن التشجيع و " لتحمل بعض تعبه " استعارة مكنية جسمت التعب وأبرزته فى الصورة المادية التى تحمل ، وفى " لغة ، وأفاضته على جسمه " استعارة مكنية تصور ما فى قلبها من معان ومشاعر ما يفيض ، و " لغة اللمس " تشبيه بليغ من إضافة المشبه به إلى المشبه ، و " نظرات يتيمة " استعارة مكنية تصور النظرات الحائرة طفلا يتيما ، فقد أباه الذى يهديه ويعينه وفيها تشخيص وإيحاء بالضياع . و " ترتد على قلبه آلاما " استعارة مكنية فقد شبه النظرات بالسهام المؤلمة وحذف المشبه به ورمز إليه بصفة من صفاته وهى ترتد آلاما ، و " الشكل الإنسانى المحبوب " كناية عن الأب والأم .

كما وشى الكاتب عبارته وصوره ببعض المحسنات البديعية الجميلة مثل : الطباق بين : " أكبر وأصغر ، وأول وآخر " وقد أفاد الأول مدى تأثيرهما فى نفوس المشاهدين ، وأما الثانى مدى ارتباطهما فى هذه المحنة من أولها إلى آخرها .

نظرة عامة فى النص :

اكتفينا من هذا النص بمعظمه لهذه الدراسة ، وقد بقى من النص الموقف الأخير منه ، ونحن نثبته هنا لمن أراد الاستفادة من النص كاملا : " ولمَّا رأيتُ الطِّفْلين ضَمَمْتُهما إلىَّ ، وألْهَيْتُهما عن كآبة القَلْبِ بسرور البَطْنِ ، فدفعت كل آلامهما فى بعض قطع الحلواء ، فَطَعِمَا واستضحكا وتطعّما الحياة جديدة آمنة " .

وبينما نحن كذلك ، إذ ارتفع سَوادٌ مقبلٌ كأنه روحُ ليلةٍ مظلمةٍ تغشى الطريق فتبينت ، فإذا امرأةٌ تهفو كذات الجناحين وكأنها تنساق بقوة تَحْترق فى داخلها ، ثم أخذتنا عيناها ، فإذا هى أم الطفلين ، تبدو من لهفتها واستطارتها لولديها ، كأنما تحاول أن تخطفهما من بعيد بقوة قلبها ، وما عرفت أنها هى إلا بأم روحها كانت منتشرة على وجهها ، ملموسة فى نظراتها إلى الصغيرين ، وكانت لها هيئة أم وُضعت الجنة تحت قدميها .

وَهَلَّ الطفلان لما أبصرا أمهما ، ونفضا أيديهما نفض الأجنحة ، ثم أكبَّتْ هى عليهما بجسمها ، ومدامعها وقُبلاتها ، والتحما بها التحام الجزء بكله ، واشتبكت الأذرع فى الأذرع ، حتى لا تُفرِّق بين ثلاثتهم فى معانى الحب إلا بالكبر والصغر ، ووجدت معهما طفلة كأن تاريخها ابتدأ جديدا فى ساعة من الساعات الفاصلة التى يتحول عندها التاريخ " .

هذا النص مقال اجتماعى ، كتب بأسلوب أدبى ، وهو يمثل اتجاه المحافظين فى النثر الذين حافظوا على سلامة الأداء ، وقوته ، وأحيوا التراث ، وتأثروا بأساليب القدماء ومجدوا الماضى وتغنوا به ووقفوا بالمرصاد لأولئك الذين حاولوا أن ينالوا من لغتنا ويأتوا إلينا ببضاعة وافدة لا تتفق مع تقاليدنا العربية الأصيلة وتتعارض مع ديننا وقيمنا .

وقد اتجه الرافعى فى أدبه إلى ثلاثة اتجاهات : الاتجاه الأول : إلى الدين والدفاع عنه وعن القرآن ورسالة الإسلام

العقدية والاجتماعية . والاتجاه الثانى : اللغة العربية والدفاع عنها ، وعن الأدب العربى بصفة عامة ضد موجات التغريب التى اشتدت هجماتها فى تلك الفترة ، إذ كثر المتأثرون بالثقافة الغربية والمتحاملون على اللغة العربية والآداب العربية القديمة والداعون إلى اللغة العامية .

أما الاتجاه الثالث فهو تجاربه الذاتية وتأملاته العاطفية والوجدانية .

وهذا النص يمثل الاتجاه الأخير ، وقد حلق فيه الكاتب إلى درجة عالية من الإجادة فى الوصف والتصوير ، ونقل الأحاسيس والمشاعر نقلا يهز المشاعر ويؤثر فى الوجدان ، فالنص وإن كانت فكرته يسيرة إلا أن الأديب استطاع بقدرته الفنية أن يغوص فى أعماق النفس مصورا مشاعره فى أناة وتمهل ، إزاء هذا المشهد الآسى ، امتزجت فيه الفكرة العميقة بالعاطفة الخصبة المتدفقة ، فهو وليد تجربة شعورية واقعية هدف الكاتب من عرضها تصوير المشاعر الإنسانية السامية كالحب والرحمة المتمثلين فى مشهد الطفلتين ، وفى تأثر الكاتب لحالهما ، ثم فى عاطفة الأمومة عند لقاء الأم لطفليها . فهو من الأدب الخالد ، لأنه وليد تجربة صادقة امتزجت فيه الأفكار بالعاطفة . وتظهر فى هذا النص خصائص المقال الأدبى من حيث أسلوبه الأدبى وموضوعه الذى يعالج مشكلة اجتماعية وهى إهمال الآباء لأبنائهم وعدم العناية برعايتهم ومراقبتهم .

ومن حيث عرضه وخصائصه التى تميزه : من سلامة العبارة ، والبعد عن الزخارف المتكلفة ووضوح الجمل ، وترك المبالغة والاهتمام بالمعنى ، وإبراز الفكرة والاستعانة بالخيال لتوضيح أفكاره وتأكيدها .

ويتجلى فى النص خصائص أسلوب الرافعى ، فهو يهتم بمعانيه وأفكاره ويتجلى ذلك فى تعمقه للأفكار وابتكاره وتوليده ، معتمدا على خصب الخيال ونضج الفكر وسعة الثقافة كما أنه يعتمد على التحليل والتأمل . كذلك فإن أسلوب الرافعى يتميز باختيار الألفاظ ورقّة الكلمات وصياغة الجمل وقوة العبارة فكل كلمة فى النص فى مكانها الملائم ، ولكل لفظ معناه الذى يقصده ، كما أن كلماته موحية موضحة للأفكار ، نابعة من عاطفة كما يتميز أسلوب الكاتب بوضوح صوره وأخيلته واستعانته فى رسمها بالكلمات الملائمة ، والعبارات المتناسقة والصور الجزئية التى تبرز خياله وتوضحه ، وتعبر عن أحاسيسه ، كما يميل أسلوبه إلى الاطناب فيأتى بالمعنى الواحد فى أكثر صورة ، وأسلوبه ليس بالمرسل أو المسجوع فله أسلوبه الخاص الذى يتميز به ..

كما يعكس النص ملامح شخصية الكاتب فهو أديب مثقف واسع الثقافة ، مفكر قوى التفكير صاحب حس مرهف ، وعاطفة جياشة ، محب للناس ، قوى الصلة بهم ، يتأثر لما يلحق بهم ، فتهتز مشاعره أسى وألما ، عميق النظرة ، متأثر بالقيم الروحية والتربية الدينية .

* * *

النص الثانى

قِوام الفنون : للمازنى

(١)

الأدب إلهامٌ وفنٌّ ، ولكل فن أدواته ، ولابد فيه من الإحسان والتجويد ، أى من الصبر وصحة النظر ، وسلامة الذوق وصدق السريرة ، وحسن الاستعداد .

(٢)

وما كان الصواب وصحة النظر ودقة الإحساس وحسن التخيل والقدرة على ذلك وغيره بمقصور على الأدباء ، ولا هى بوقف عليهم ، ولكن كم ممن تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة ، والإحساسات العميقة يستطيعون أن يبرزوا هذه ، ويحدثوا فيها صورا ، ويجلوها للناس كما هى فى نفوسهم . الألفاظ أدوات الكتابة موجودة ، ولعل غير الأديب لها أحفظ ، وبها أعلم ، وهى فى طريق من شاء ، غير أنها ليست كل ما يحتاج إليه المرء ، ليكون منه كاتب .

كذلك الألوان والأصباغ حاضرة ، من شاء مدَّ إليها يده ، وتناولها ، وصنع بها ما أحب ، وهى مادة التصوير ، ولكن من الذى يحسب أنها كل ما ينقص المرء ليكون مصورا ؟ .

وكذلك لا يغنى العلم بالقواعد والأصول ، وما عسى أن تكون قيمتها وحدها ؟ هذا وجه يريد المصور أن يرسمه

وينقل الى اللوح ما يترقرق فى صفحته من المعانى ، ويجول فيه من الأهواء فكيف ذلك ؟ .

كيف يجعل هذه الشفة ناطقة بالسخرية ، تقويسة الذّقن معبرة عن التصميم ، أو لمعة العين شاهدة بسجاحة الخُلُق ورضا النفس ؟ كيف يُشعرك بما يشعر هو به من السحر أو الدلال أو القوة أو الجلال ؟ ويفيدك ما أفاد من الأنس والغبطة والروح ؟ - أو كيف يجعلك حين تنظر إلى الصورة الحاكية تشتهى - مثله حين يجتلى الأصل - أن تغمض عينيك ، وتنقل نفسك إلى عالم آخر من الخيالات والخواطر والإحساسات . وما يقال عن المصور يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر .

والأمر فى كلتا الحالتين يحتاج إلى فطرة مُهَيَّأة له أسبابها ، وذوق مؤازر ، وسليقة مناصرة ، وملكة مُعينة على حسن اختيار الرموز الكفيلة بإفراغ الخواطر فى القوالب الملائمة ، والقادرة على إحداث الصور المطلوبة فى أذهان القراء .

(٣)

وعلى ذلك يكون صانعا ـ لا أكثر ـ مَنْ مَارَس الفن وحُرم الإلهام ، صانعا كهذه الآلات التى تدور بلا روح وتُخرج ألوانا وضروبا من الصور تعجب بصقلها ودقتها وإحكام صنعتها ولا تحس أن يد إنسان حى أو قلبه وراءها .

* * *

أولا : التعريف بالكاتب :

إبراهيم عبد القادر المازنى (١٥ من أغسطس سنة ١٨٩٠ ـ ١٢ من أغسطس سنة ١٩٤٩م) ولد فى القاهرة لأب حضر العلم فى الأزهر وسافر إلى فرنسا وكان بعد عودته محامى الخديو ـ وكان هذا الأب مزواجا ، لكنه توفى وابنه إبراهيم ما زال فى بداية عمره ، فنشأ نشأة قاسية وذاق مرارة اليتم ، وشظف العيش تعلم فى مدارس القاهرة وحاول أن يلتحق بالحقوق ، ولكنه عجز عن المصروفات فالتحق بالمعلمين وتخرج فيها سنة ١٩٠٩م . واشتغل بالتدريس مدرسا للغة الإنجليزية ، ولكنه كان يكره التدريس ولذلك كان يتركه ويعود إليه تحت حاجته إلى الوظيفة والمال ، ثم ترك التعليم نهائيا سنة ١٩١٨م واشتغل بالصحافة وكانت صلته بها قديمة ترجع إلى سنة ١٩٠٧م حيث كتب فى صحيفة الدستور مع زميله العقاد ، وغيرها من الصحف ،ثم تفرغ للكتابة وأخرج كتاب "الديوان" النقدى مع زميله العقاد ، وقد أجاد المازنى اللغة العربية ، وقرأ الأدب العربى القديم وأعجب بكتابة الجاحظ وابن الرومى والشريف الرضى والمعرى كما أجاد اللغة الإنجليزية لأنها كانت لغة التدريس وساعده ذلك أن يطلع على الأدب الإنجليزى ، ويقرأ الكثير منه وقد أعجب بالاتجاه الرومانسى الغربى ، وكذلك الاتجاه الواقعى

وقد أثرت فى المازنى كثير من المحن التى ابتلى بها ، ومنها أنه كان قصيرا ضئيل الجسم ، فكان ذلك يعذبه ويضنيه ، ثم يتمه المبكر ووفاة زوجته الأولى بعد مرضها ،ثم

وفاة الزوجة الثانية ، وابنته من زوجته الثانية ، وعرج لازمه مدة طويلة بسبب انزلاقه على السلم وهو يحضر الدواء لزوجته من صندوق معلق على الحائط ، ولذلك كان ثائرا ساخرا ، ووجهت هذه الحوادث وغيرها أدبه وجهة السخرية بالحياة وبمن فى الحياة . ولعل ذلك يكشف لنا كثرة كتاباته عن نفسه فمعظم مقالاته تدور حول نفسه ، فيتكلم عن الماضى والحاضر مصورا الحياة من حوله كما يراها ، كما لم يدع المازنى شيئا فى البيئة المصرية من حوله لم يتناوله بقلمه الساخر ، حتى الأوهام والأمثال والخرافات والفكاهات والتفاؤل والتشاؤم ، وله ديوان شعر ومؤلفات نثرية منها : "قبض الريح" الذى جمع فيه بعض مقالاته ،و "حصاد الهشيم" ،و "خيوط العنكبوت" ، و "إبراهيم الكاتب" ، و "إبراهيم الثانى" ، وقد صور فى هذين الكتابين حياته ، و "صندوق الدنيا" ، وغير ذلك . (راجع عنه : الأدب العربى المعاصر للدكتور / شوقى ضيف ، وإبراهيم المازنى للدكتور / محمد مندور ، وأدب المازنى للدكتورة : نعمات فؤاد) .

ثانيا : معانى المفردات :

١ - قوام الفنون : عمادها الذى تقوم به . الإلهام : توفيق روحى بوحى من الفطرة والموهبة ، النظر : التأمل ، السريرة : النية ، الاستعداد : الفطرة .

٢ - وقف : مقصورة وموقوفة ، السديدة : الصائبة .

الخيالات : الخيال والخيالة ما يتشبه له فى اليقظة والحلم من صور ، يحدثون فيها صورا : يوجدونها ، يترقرق : يبدو ويظهر ، الأمواه : المياه والمراد هنا الجمال والصفاء ، سجاحة الخلق : سماحته ، الدلال : التدلل ، والتمنع عن المحب ، الروح : الراحة ، الحاكية : التى تحكى الأصل وتمثله ، يجتلى : ينظر ، الحالقين : حالق الرسام ، والأديب الرموز : الكلمات فى الأدب والخطوط والألوان فى الرسم . القوالب : الأشكال .

٣ - ضروبا : أنواعا ، صقلها : الصقل الملاسة والاستواء والمراد الاحكام والدقة .

ثالثا : شرح النص:

يظن بعض الناس أن العمل الأدبى وأى عمل فنى آخر لا يتطلب مشقة وجهدا ، إذ يكفى - فى ظنهم - أن تلم بأدوات كل فن لكى تصبح قادرا عليه ، ولو كان الأمر كذلك لما كان العمل فنا يمثل روح صاحبه وشخصه ، بل يصبح صناعة يقدر عليها كل من توافرت له آلاتها .

والنص الذى ندرسه للمازنى جزء من مقال طويل فى كتابه "قبض الريح" بعنوان : "متاعب الطريق" يحاول فيه الكاتب أن يوضح مشقة العمل الأدبى والعقبات التى تعترض طريقه ، فى التعبير الصادق عن أفكاره وعواطفه ويمهد بذلك للحديث عن طبيعة الفن ومشقة العمل الأدبى ويبين أنه شئ آخر غير

العلم والصناعة وأنه يستلزم أول ما يستلزم الفطرة والموهبة ،
وقد عالج الكاتب فى هذا النص المختار والأفكار التالية :

عوامل النجاح الفنى ، الموهبة ضرورية لكل فنان ، والفرق بين الفن والصنعة ، وتحت عنوان "عوامل النجاح الفنى" تحدث الكاتب عن الأدب وقال إنه فن من الفنون ، وظل كل فن لابد له من عوامل تضمن له النجاح وهى : الأدوات والآلات ، كالكلمة فى الأدب ، والنغمة فى الموسيقى ، والخط واللون فى الرسم ، ثم الاتقان والإجادة ، وذلك يتحقق بما يأتى :

١ ـ الصبر ، وصحة النظر والتأمل ، وسلامة الذوق ، وصدق السريرة .

٢ ـ حسن الاستعداد والموهبة الفطرية .

ثم بين الكاتب أنه قد يتوافر لكثير من الناس معظم هذه العوامل كدقة الإحساس وصحة النظر وحسن التخيل وامتلاك أدوات الفن ، كحفظ الكلمات ، والعلم بقواعد اللغة ، ومع ذلك لا يكون هؤلاء الناس أدباء لأنهم حرموا أهم عوامل النجاح فى تكوين الأديب وهى الموهبة الفطرية التى يمنحها الله تعالى لمن يشاء من عباده . فالكلمات مطروحة فى طريق من شاء والأديب الموهوب هو الذى يستطيع أن يجعل منها فنا . وكذلك الشأن فى سائر الفنون ، فلو نظرنا إلى فن الرسم لوجدنا الموهبة هى العنصر الأساس فى تكوين الرسام الفنان ، فالأصباغ والألوان حاضرة ، ولكنها وحدها لا تخلق الرسام ، وكذلك دراسة قواعد الرسم وأصوله لا قيمة لها وحدها

فالرسام الموهوب يجعل الوجوه تنطلق بالمعانى والجمال ، كما ينطق الشفاة بالسخرية ويجعل تقويسة الزقن فى الصورة معبرة عن العزم القوى ، ولمعة العين علامة على الرضا ويستطيع نقل مشاعره هو إلى المشاهد .

فهذه صورة امرأة توحى بالسحر الأخاذ ، أو التدلل والتمنع ، وهذه صورة قائد أو زعيم توحى بالقوة والعظمة والسمو ، وهذا منظر للطبيعة الجميلة يوحى بالسعادة والراحة ، إن الرسام الحق هو الذى يحملك على أن تعيش تجربته حين انفعل بالأصل الذى رسمه ، ويجعلك تحس بإحساسه ، وينقلك إلى عالمه النفسى ، وما فيه من تصورات وخيالات وأحاسيس ، وذلك كله ينطبق على كل فنان ، سواء أكان أديبا أم رساما ، وسواء أكان موسيقيا أم نحاتا فلابد لكل فنان من موهبة فطرية ينميها بالاطلاع ويشحذها بالتدريب فتتفتح قدرته على التذوق الفنى وتظهر المهارات والقدرات التى تعين على حسن اختيار الرموز الاصطلاحية فالكلمات والخطوط والظلال التى تهيئ التعبير عن المشاعر والوجدان وتنشئ الصور المطلوبة فى أذهان القراء والمشاهدين .

٣ ـ ثم ينتهى الكاتب إلى الفكرة الأخيرة وهى الفرق بين الفن والصنعة فيقول : إن الفن إيحاء وإلهام ومن حرم تلك الموهبة كان صانعا لا فنانا فيصبح كالآلة التى تطبع الصور بواقة دقيقة التفاصيل ولكنها خالية من الروح والحياة ، فليس وراءها يد إنسان حى وقلبه ، فلا تحس وأنت تقرأ أدبه

أنه يمثل حسا أو وجدانا أو يعكس روحا إنسانية ، فالفرق كبير بين الفن والصنعة ، كالفرق بين الحي والميت .

رابعا : الدراسة الفنية :

١ ـ التعبير :

بدأ الكاتب مقاله عن الأدب بأنه إلهام وفن . فلخص في هاتين الكلمتين موضوع المقال كلة ، وقدم الإلهام لأنه عمود الأدب الأساس ، وثنى بالفن لأنه يصقل الموهبة ويجلوها ، ثم أخذ يفصل القول في أدوات الفن وآلاته ، وقد ذكر الكاتب هذه الأدوات مرتبة ترتيبا يلائم طبيعة التدرج في الخلق الفني ، فأول ما يحتاج إليه الفن هو الصبر ؛ لأنه معاناة وجهد ، يلي ذلك الفكرة التي تحتاج إلى صحة النظر ثم التعبير عنها الذي يحتاج إلى سلامة الذوق ، ثم يأتي بالوصف العام للأديب الصادق وهو صدق السريرة ، ويختم بحسن الاستعداد لأنه الزاد الذي يمكن للأديب من الخلق الفني .

ويمتاز أسلوب الكاتب بالسهولة والوضوح والدقة والعذوبة والسلاسة والبساطة ، وملاءمة المواقف المختلفة ، ففي الحديث عن الفن بوجه عام استخدم الألفاظ والعبارات التي تناسب الفنون مثل : "إلهام ، أدواته ، آلاته ، الإحسان والتجويد ، صحة النظر ، سلامة الذوق ، وحسن الاستعداد" وعطف كلمة

التجويد على الإحسان من عطف الترادف لأنهما بمعنى واحد ، وهو الاتقان ، وكلمة " أى " فى قوله : " أى من الصبر " تفسير لأن ما بعدها تفصيل لما قبلها وفى الحديث عن الأدباء ، يختار ما يلائم الفن الأدبى مثل : " دقة الإحساس ، وحسن التخيل ، والخواطر ، والخيالات الرائعة ، والآراء السديدة ، والإحساسات العميقة " .

وقد أوحى الفن فى قوله : " وما كان الصواب وصحة النظر . . . " الخ ، بأن هذه الصفات يمكن أن يتصف بها غير الأدباء . والباء فى بمقصور "زائدة" لتوكيد النفى ، وقوله : " ولا هى بوقف عليهم" بعد قوله : " بمقصورة على الأدباء " إطناب يفيد التوكيد . وقوله " ولكن كم من تفيض . . . " استدراك يبرز أهمية أدوات الفن فى عملية الخلق والإبداع ، والاستفهام فى قوله : " كم من تفيض . . . " الغرض منه التقليل كما جاءت كلمة " أدوات " أنسب للألفاظ ، وكلمة " مادة " مناسبة للأصباغ والألوان ، والغرض من الاستفهام فى قوله " من الذى يحسب " للنفى . وقوله : " وما عسى أن تكون قيمتها " استفهام الغرض منه النفى ، أى أنه لا قيمة لها وحدها .

وقد جمع الكاتب بين العبارة وما يلائمها كأنه صيرفى ماهر فالسخرية ألصق بتعبير الشفة ، والتصميم أوضح فى تقويسة الذقن ، وسجاحة الخلق ورضا النفس نلمحها فى لمعة العين ، وعطف رضا النفس على سجاحة الخلق طبيعة أصيلة ورضا النفس مظهر من مظاهرها وأثر من آثارها ، ومن الملاحظ

أن الكاتب ينتقل من استفهام إلى آخر بدون عطف ليدل على أن هذه الأسئلة شديدة الصلة حتى لكأنها سؤال واحد .

٢ ـ الأسلوب :

معظم أساليب النص خبرية قصد بها الكاتب التقرير ولم يستعمل من الأساليب الإنشائية سوى الاستفهام الذى خرج بعضه إلى التعليل وبعضه إلى النفى وبعضه حقيقى . فقوله : " كم ممن تفيض خواطرهم بالخيالات ... " استفهام للتقليل ، وقوله : " من الذى يحسب أنها كل ما ينقص المرء .. " ، وقوله : " ما عسى أن تكون قيمتها وحدها " كل منهما استفهام للنفى و " كيف ذلك .... ؟ ، وكيف يجعل هذه الشفة .... ؟ ، وكيف يشعرك ذلك ؟ ... وكيف يجعلك " كل منها استفهام حقيقى .

خامسا : التصوير :

التصوير فى هذا المقال قليل لأنه علمى متأدب حرص فيه الكاتب على إظهار الحقائق ولذلك اشتمل على صورة تفسيرية هدفها التوضيح وليس هدفها الإثارة . من هذه الصور : الاستعارة المكنية فى قوله " تفيض خواطرهم بالخيالات فقد صور الخواطر أنهارا تفيض ، والخيالات والآراء مياها تزيد ، وفيها تشخيص وتجسيم وإيحاء بالقدرة على التخيل والتفكير السليم " و " الإحساسات العميقة " استعارة مكنية أيضا تصور الإحساسات القوية بئرا عميقة أو بحرا عميقا ، وفيها تجسيم

وتشخيص يوحى برقة الشعور ، " وهى فى طريق من شاء " كناية عن سهولة الحصول على الألفاظ ويسر التمكن منها وحرية التصرف فيها ، " من شاء مد يده إليها " كناية أخرى عن التمكن والتصرف " ما يترقرق من المعانى " استعارة مكنية ، شبه المعانى التى يعبر عنها الوجه بماء يترقرق وفيها تجسيم وإيحاء بالحيوية ، و " يجول فيه من الأمواه " كناية عن براعة الرسم ، ومد الشفه ناطقة بالسخرية " استعارة مكنية ، حيث شبه الشفة المرسومة على اللوح المعبرة عن السخرية بإنسان حى ينطق وفيها تشخيص وإيحاء بالبراعة فى فن الرسم ،و " لمعة العين شاهدة " استعارة مكنية ، فقد شبه لمعة العين وتعبيرها عن الرضا بإنسان يؤدى ما عنده من الخبر القاطع ، وحذف المشبه به ودل عليه بشئ من صفاته وهو " شاهدة " .

وقوله " ويجعلك حين تنظر إلى الصورة مثله بمن يجتلى الأصل " تشبيه يوحى بقوة التأثير وبراعة الفنان ، وهى كناية عن روعة الفن وقوة التصوير ، و " ذوق مؤاز ، وسليقة مناصرة ، ملكة معينة " استعارات مكنية فيها تشخيص وإيحاء بالأصالة الفنية ، و " إفراغ الخواطر فى القوالب الملائمة " استعارة مكنية تصور الخواطر سائلا يصب ويفرغ والأشكال الفنية من أدب ورسوم ، وقوالب تصب فيها هذه الخواطر . وقوله " يكون من مارس الفن ... صانعا كهذه الآلات ... " تشبيه ، حيث شبه من يزاول الفن بدون موهبة بالآلات التى تدور بلا روح فكل منهما ينتج صناعة قد تكون متقنة ، ولكنها غير معبرة خالية

من مظاهر الحياة ، وقوله : "لا تحس أن يد إنسان أو قلبه وراءها " كناية عن خلوها من أثر العاطفة .

كما استعان الكاتب ببعض المحسنات البديعية غير المتكلفة على توضيح أفكاره ومن ذلك : الجناس الناقص بين : "الدلال ، الجلال" ، والازدواج مثل : صحة النظر، وسلامة الذوق ، وصدق السريرة" . والنص حافل بهذا اللون من "الازدواج" كما نرى في كل فقرة كقوله: "ما كان الصواب وصحة النظر ، ودقة الاحساس ، وحسن التخيل ..." وقوله كمن تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة والإحساسات العميقة ..." .

نظرة عامة فى النص:

يعالج الموضوع قضية من قضايا الأدب والفن التى شغلت أذهان الناس طويلا فى تطور أدبنا الحديث ، وهى الكشف عن طبيعة الفن الصحيح وسماته الأصيلة ، وملامح الزيف والترخص فى الأعمال الأدبية وذلك لتوضيح معالم الطريق أمام الأدباء ومحاربة أدب التكلف والصنعة التى يعتمد على التقليد دون الأصالة وعلى الشكل الخارجى دون المضمون ، وكانت هذه الوقفة بين القديم والجديد وغيرها من قضايا النقد والأدب مرحلة حتمية فى طريق تطور الحياة الأدبية فى عالمنا المعاصر ، وعليها التقت جهود الأدباء المجددين فأسهموا فى إقرار القيم والاتجاهات الأدبية الصحيحة .

ويلتقى رأى الكاتب فى هذه القضية مع آراء المجددين الداعين إلى أن يكون أدبنا تعبيرا عن الوجدان والمشاعر وألا يتصدى للعمل الأدبى إلا من يملكون أدواته .

وقد عرض الكاتب لأفكاره فى هذا النص بوضوح ودقة ، كما أن أفكاره جديدة لأنها ترسخ قواعد أساسية للنقد الأدبى والتذوق الفنى بوجه عام ، وتبرز أهمية الموهبة الفطرية كشرط أساسى فى كل عمل فنى ، كما جاءت أفكاره عميقة تمتمد على التفصيل والتحليل والاستقصاء والتعليل ، مرتبة مترابطة فقد بدأ المقال بالحديث عن عوامل النجاح الفنى ، ثم انتقل إلى ميدان الأدب والرسم واتخذ منهما مجالا لعرض آرائه فى تسلسل وإحكام واستدلال وخرج بنتيجة منطقية فى صورة حقيقية ثابتة لا تقبل المناقشة : " وعلى ذلك يكون صانعا ـ لا أكثر ـ من مارس الفن وحرم الإلهام " ، ففرق كبير بين أدب الصنعة ، وأدب الطبع .

وأسلوب الكاتب فى هذا النص علمى متأدب ولذلك اختار الألفاظ والعبارات الدقيقة فى معناها ، البعيدة عن التموجات العاطفية ، كما سلك سبيل التحليل والقياس والتفصيل والإيضاح بعد الإبهام والإجمال ، ولذلك كان التصوير فى النص قليلا هدفه التفسير والتوضيح لأن الأديب يهدف إلى الاقناع بفكرته فى هذا النص ، وقد جاءت بعض هذه الصور طريفة توحى بموهبة فنية أصيلة للكاتب ، مثل : " هذه الشفة ناطقة بالسخرية ، وتقويسة الذقن معبرة عن التصميم ، ولمعة العين

شاهدة بسجاحة الخلق" . وهذا النص يمثل مرحلة الازدهار في تطور النثر وتخلصه من القيود والأغلال التي كان يرسف فيها وكاتبه من أعلام مدرسة المجددين الذين درسوا الثقافة العربية وتأثروا تأثرا كبيرا بالثقافة الغربية وآدابها ، مما جعله يسهم إسهامات واضحة في الحركة الأدبية المعاصرة ويكون من قادة الحركة التجديدية في أدبنا المعاصر ، وقد أمكن له في هذا الاتجاه نهج خاص من التفكير في الأدب والحياة استقام له من قراءاته الواسعة في الأدبين العربي والغربي ، ومن تجاربه الفنية الزاخرة في حياته التي كرسها للشعر وكتابة القصة والمقالة والنقد الأدبي .

وأسلوب النص يكشف عن خصائص المازني في كتابته : فهو يمتاز بالوضوح والسلاسة وبساطة التعبير ، والنفاذ إلى خوالج النفس ، وعمق المعاني والأفكار وحيوية الشعور ، والميل إلى التحليل والتعليل والاستقصاء .

ويعكس النص شخصية كاتبه ، فهو عميق الثقافة ، وأحد رواد النقد الحديث ، واسع الاطلاع في الأدبين العربي والغربي خفيف الروح يميل إلى السخرية والفكاهة ، وذوقه ذوق أديب مرهف الحس والمشاعر .

* * *

النص الثالـــــث

غصن من الورد : للريحانـــــــــي

(١)

على كتف هذا الوادى الذى ردد صدى صراخى وغنائـــى صغيرا ، فى هذه الأرض التى هجرتها قبل أن هجرتـــنى الصبوة ، ... غرست غصن ورد طريا ..

كَلّمْتُ الأرضَ بيدى لا بلسانى ، حَصبْتُها ونَقبْتُها بِمِعْولِـى الصغير ، سقيت غُصنى من ماء الفؤاد ... وحجبت عنه النـور فى أيامه الأولى . رفعت فوقه سرادق وُدِّى وهيامى ، ونثرت حوله فى الشتاء أوراق الخريف البالية ، ولبثت إذ ذاك أنتظـــر جواب الأرض وحكمها .

(٢)

تباركت أرض أجدادى ، فقد حَسُن فى عينها اجتهادى . تباركت أرض أمى فستُرينى الورد على غصن تعبى وهمى . نعم . الأرض كلّمتنى ، أجابت الأرض سؤالى .. ردّدت الأرضُ صدى حبى ....

ها إنّ غصن الورد ينطلق كالطفل ، بدت عليه ، علـى شفتيه لفظة الحياة ، وأثمرت فى قلبه الكلمة الحية الـــــتى تساقطت عرقا من أناملى ومن جبينى .

.. فى قلبه أغصان ، وفى قلب الأغصان ورود ، وفى قلـب الورد بذور ، وفى البذور الأبدية الخلود .

(٣)

كلمتنى أرض أجدادى ، أحيت فىّ الرجاء ، ضمّت إلى صدرها طفل حبى وأنعشته بعد أن كاد يموت .

نَفَخَتْ فيه من رُوحها الأزلىّ ، فتحرك لسانُه ، وهو ينطق بما تلقيه إليه آيات الحب والجمال ، والحكمة والرجاء ، أين فصاحتى من فصاحتها ؟ .

الأرض لا تنطق إلا لتحيا ، ولا تتكلم إلا لتزهر وتثمر ، ما قالت : " لا " بزمانها قط ، فإن كان جوابها إيجابا " فنعم " وإن كان سلبا " فسكوتا أبديا .

كل أيامها جميلة ، كل أقوالها منعشة محببة .

أولا : التعريف بالكاتب :

أمين بن فارس الريحانى (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠م) أديب من أدباء المهجر المشهورين ولد بقرية الفريكة بلبنان وسافر مع عمه وهو فى الثانية عشرة من عمره إلى أمريكا ، وتعلم فى بعض المدارس هناك ، إلا أنه ترك المدرسة لانشغاله فى تجارة عمه ولكنه تابع دراسته الليلية فى جد ودأب حتى أتقن الفرنسية والإنجليزية ، ثم تعددت دراساته فدرس الحقوق والتمثيل وكان مولعا بالرحلات فزار أوربا والشرق العربى ، وخالط أنماطا عديدة من الناس وتوثقت صلته بالملوك والرؤساء وكانت

رحلاته نبعا متجددا لأفكاره وتجاربه ، وفى سنة ١٨٩٨م اشتد عليه المرض ، فعاد إلى لبنان ، وفى لبنان عكف على الدراسة الأدبية وأخذ يكتب ويتنقل فى رحلات لا تكاد تنقطع إلى أوربا وإلى بلاد الوطن العربى ، كما أخذ يكتب فى الصحف الأدبية ويترجم من الأدب العربى إلى الآداب الأجنبية ، وهو أول من كتب الشعر المنثور فى الأدب العربى ، وكان من الدعاة إلى الوحدة العربية ، وتحرير الفرد من الجهل والتعصب ومن آثاره الأدبية : الريحانيات ، و "ملوك العرب" ، و "قلب لبنان" و "التساهل الدينى" ، (ورسائل أمين الريحانى"، و "وجوه عربية غربية" . (راجع عنه : أدب المهجر لعيسى الناعورى ، و "أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية" لجورج صيدح) .

ثانيا : معانى المفردات :

١ ـ كتف هذا الوادى : الوادى هو وادى الفريكة الذى ولد فيه الكاتب ، وكتفه أعلاه ، الصبوة : الفتوة والميل إلى اللهو فى حداثة السن ، حصبتها : فرشت فيها الحصباء وهى الحصى الصغير وليس هذا مرادا وإنما المراد ألقيت فيها السماد ، ولا يفهم ذلك إلا من السياق ، نقبتها : حفرتها بالفأس ، سرادق : خيمة ، الهيام : شدة الوجد ، البالية : التى جفت وسقطت .

٢ ـ تباركت : دعاء للأرض بالخير والبركة ، همى : المراد جهدى ، الأبدية : البقاء الدائم .

٣ ـ أنعشته : بعثت فيه الحياة ، الأزلي : القديم ،
ينطق : المراد ينمو ويورق ، آيات : دلائل ، بزمانها : في
زمانها .

ثالثا : تقديم النص:

هاجر عدد غير قليل من أبناء سورية ولبنان إلى أمريكا
الشمالية والجنوبية واتخذوها مقرا لهم ، وقد وجدوا فيها
الغنى والثروة ، والحرية ، لكنهم لم ينسوا أوطانهم ولم
يقطعوا صلتهم بأرضهم ، بل كانوا في حنين دائم إلى ملاعب
الصبا ، وذكريات الطفولة ، ومهد الآباء والأجداد ، فكثر في
أدبهم الحنين إلى الوطن ، والتعلق بأرض النبوات والحضارات
يضاف إلى ذلك شعورهم بأن كل جهد بذلوه في المهاجر
لم يأت بالثمرة المرجوة ، فالحياة المادية هناك تطغى على
العلاقات الإنسانية والقيم الروحية ، أما الوطن الأم فلا يتنكر
لأبنائه ، وإن اغتربوا عنه ، فالصلة به دائمة لا تنقطع ، وثمار
الجهد فيه محققة لا تضيع ، وذلك ما عبر عنه أمين الريحاني
في هذا النص .

والجزء المختار للدراسة هو جزء من مقال طويل حذف صدره
وآخره وبعض عبارات من أثنائه ، يقرر فيه الكاتب أنه مقبل
بقلبه وعقله وعمله على أرض وطنه بعد أن فقد الأمل في غيره ،
ويجعل من غصن الورد رمزا لرجائه في أن يثمر سماه ويبلغ
غايته .

رابعا : الشرح :

تدور أفكار النص حول النقاط التالية : تعلق الكاتب بوطنه وحنينه إليه ، استجابة الأرض لعمله وأثر ذلك فى نفسه ، الأرض خير معلم للإنسان .

وفى الفكرة الأولى أخذ الكاتب يسترجع ذكريات الصبا حيث نشأ فى وادى الفريكة وهو يحتفظ بذكرياته الغالية عليه ، فقد شهد مولده ومرح طفولته ، وردد أصداء صراخه غاضبا ، وغنائه مرحا وطربا ، والذى هجره وارتحل عنه قبل أن يتجاوز عهد الصبا ، ويقول : فى هذه الأرض الطيبة وضعت بذور الأمل والرجاء ، فغرست غصن ورد طربا وحرصت جهدى على رعايته وحمايته لينمو ويكبر ، فلم أجلس بجواره أكلم الأرض بلسانى ، فالكلام لا يغنى ، بل شمرت عن ساعد الجد ، وعملت فى الأرض بيدى ، فمهدتها ونثرت فيها السماد ، وحفرت فيها مكانا وضعت فيه غصنى وسقيته حبى ووفرت له كل وسائل النمو ، فحجبت عنه النور والأشعة الحارة فى أيامه الأولى ، وحميته بعطفى وحنانى من كل ما يضره ، وغطيته فى الشتاء بأوراق الشجر المتساقطة فى فصل الخريف حتى لا يؤذيه البرد ، وأخذت أنتظر حكم الأرض على كفاحى وردها على جدى واجتهادى ، فهل تقبل غصنى وتمده بالحياة أو تلفظه وتقضى على بالفناء .

٢ ـ وقد استجابت له الأرض ، فدعا لها بالخير والبركة

وبادلته حبا بحب ، ووفاء بوفاء ، وردت تعبه جنى وثمرا ، فنما غصن الورد ودبت فيه الحياة وظهرت معالمها عليه ، وأثمر فيه الجهد المضنى الذى تساقط فيه العرق من جبينه ، ومن أطراف أصابعه ، ثم دفعه الأمل إلى الايمان بأنه غصن مبارك تنبثق منه غصون وفى كل غصن ورد ، وفى كل وردة بذور ، وفى هذه البذور معنى البقاء والخلود ، لأنها ستجدد حياة الورد تجددا دائما ومستمرا .

٣ - وفى الجزء الثالث يفرح الكاتب بنجاح عمله ، وتتجاوب الأرض معه ، فقد أحيت فيه الرجاء والأمل ، وأكدت له أن الوطن لا ينسى أبناءه ، وأن عمله الذى لم يثمر فى البلاد الأخرى أثمر فى وطنه ، فهذه أرض أجداده بعثت الحياة فى غصن الورد رمز حبه ورجائه وأنعشته بعد أن كاد يموت ونفخت فيه من روحها الأزلى ، فاخضر وأزهر وأثمر ينطق بما عملته الأرض من آيات الحب الخالد والجمال الناظر وظهرت عليه دلائل القدرة الله تعالى ، وحكمته ، فأصبح رمزا للحب يتهاداه المحبون ، وأصبح رمزا للجمال تشبه به خدود الحسان ورمزا للحكمة يفوح منه عطر الرحمن .

وهكذا كان الغصن ناطقا بلسان الأرض الفصيحة ، فلغتها أفصح اللغات ونطقها حياة تتجلى فى الإنبات والإزهار والإثمار وهى مطبوعة على الجود والعطاء ، لا تمنع خيرها قط ، فإن تيسرت لها عوامل الخصب والنماء كان جوابها إيجابا ، وان عجزت سكتت سكوتا أبديا كأنها تخجل أن تقول : لا ، فقولها دائما

منعش محبب إلى القلب ، فيه جمال المنظر وحكمة الخالق ، وبحاء الإنسان ، فما أجدرنا أن نتعلم من الأرض الدروس ونستفيد من عبرها حتى تسعد البشرية ويرفرف عليها الحب ويحدوها الأمل والرجاء .

خامسا : الدراسة الفنية :

١ ـ التعبير :

أ ـ تجلت فى هذا النص عاطفة الحنين إلى الوطن ثائرة قوية ، تفيض حبا وإصرار على خدمته بالعمل وتمتلئ تمجيدا لهذا العمل الذى يرفع شأن الوطن ، ولهذا استطاع الكاتب أن ينقلنا إلى فكرته لنعيش معه فيها حيث كان حريصا على أن يقرر أنه مقبل بكل عقله على أرض وطنه بعد أن فقد الأمل فى غيره ، وأنه يحاول أن يسهم فى النهوض بحقه عليه عن طريق العمل الجاد والبناء ، ولا القول الذى لا يغنى شيئا وأنه بذل فى ذلك ما يملك من جهد وحب ودأب ، وقد اعتمد على التأثير فى نفوسنا على عاطفة فياضة قوية ظهر أثرها فى التعبير ، فقد اختار الجمل والعبارات المثيرة مثل : " ردد صدى صراخى وغنائى صغيرا ، هجرتها قبل أن هجرتنى الصبوة ، كما يلح على المعنى واستقصاء الفكرة ، مثل : " كلمت الأرض ، حصبتها ، نقبتها ، سقيت غصنى ، حجبت عنه النور " فقد تحدث تفصيلا ، واستقصى كل ألوان العمل ، الذى بذله واستخدام هذه الجمل الصغيرة المتلاحقة يوحى بتلهفه على معرفة جواب الأرض ،

ولا يخفى ما فى التقديم فى قوله " على كتف هذا الوادى ... غرست غصن ورد" من جمال ، فقد أفاد هذا التقديم القصر والاختصاص ، فهو يخص وطنه بحبه ، واختياره للفظ : " كيف " يوحى بجودة المكان وشدة خصبه ، وصلاحيته لتحقيق أمله ، والتعبير بقوله : " سقيت ماء الفؤاد " يوحى بضرورة الإخلاص فى العمل ، وكذلك التأكيد بالعطف على " بيدى لا بلسانى " ، و " ودى وهيامى " ، وقوله : " هجرتها قبل أن هجرتنى الصبوة ، يوحى بالحسرة والمرارة لفراق وطنه صغيرا .

ب ـ وفى الفقرة الثانية نشعر بالكاتب وقد غمرته الفرحة لنجاح عمله ، وذلك يبشر بتحقيق أمله ، ففاض تعبيره إشراقا نحسه فى الدعاء لأرض أجداده ، بالخير والبركة ، وقد أضاف الأرض إلى أجداده مرة ليوحى بالعلاقة القوية بينه وبينها ، ثم أضافها مرة أخرى إلى أمه ، لما فى كلمة " الأم " من الدلالة النفسية ، فهى مصدر الحياة والحنان ، وتكرار الأرض عدة مرات للتلذذ بذكرها ، فهى أرض الوطن الحبيب ، وصيحة الكاتب : " ها ، إن غصن الورد ينطق ... " توحى بقمة الفرح والسعادة ، ولعلنا نلاحظ التدرج فى حديث الأرض : " كلمتنى ، أجابت ، ردت " فالأول كلام عام كأنه بدء النمو فى الغصن الذى غرسه ، والثانى إجابة كان ينتظرها وهى ظهور بعض الأوراق ، والثالث : استمرار للنمو وتكرار له .

جـ ـ وفى المقطع الثالث : نجد الكاتب سعيدا بنماء غصنه رمز أمله ورجائه وحبه لوطنه ، ولذلك كثرت فى هذا الجزء

الكلمات الموحية بالسعادة والأمل مثل : أحيت فنّ الرجاء وضمت صدرها ، طفل حبى أنعشته ، نفخت فيه من روحها ، الحب والجمال والحكمة ، تزهر ، تثمر ، منعشة ، محببة " .

كما جاءت الجمل قصيرة متتابعة نتيجة لتدفق العاطفة انظر إلى هذه الجمل وما تحمله من تدفق العاطفة والشعور بالفرحة والغبطة : " تباركت أرض أجدادى — تباركت أرض أمى — فستريني الورد على غصن تعبى وهمى — نعم الأرض كلمتنى — أجابت الأرض سؤالى — رددت الأرض صدى حبى " . ورموز الكاتب التى استعملها فى هذا الجزء تساير جو المعلم ، فهى تجيب " بنعم " للإنبات والزهر ، و " سكوت الأرض " رمز لجدبها ، وعدم قدرتها عليه ، كما يلجأ الكاتب للإجمال بعد التفصيل ، فبعد أن بين صورة ما تتحلى به الأرض عندما تنطق وتتكلم وتجيب أو تسكت ، بين أن " كل أيامها جميلة ، وكل أقوالها منعشة محببة " .

٢ — الأسلوب :

نلاحظ فى هذا النص أن أساليبه كلها خبرية إلا قوله " أين فصاحتى من فصاحتها ؟ " فهو أسلوب إنشائى اعتمد على الاستفهام المراد به الاستبعاد .

واعتماد الشاعر على الأساليب الخبرية فى هذا النص أمر طبيعى وضرورى لأنه هنا يتحدث عن غربته وعن وطنه وعلاقته .

به وما يحمله من حب وتعلقه الدائم به وفرحته بأن وطنه لم يهجره كما هجره هو ، فكان الأسلوب الخبرى الذى هو الوعاء المناسب لهذه المعانى .

وقد جاءت الأساليب الخبرية فى الفقرة الأولى لتفيد تعظيم الوطن والحنين إليه والتعلق بالأمل . وفى الفقرة الثانية لإظهار الفرح والسعادة ، وتعظيم الوطن والفخر به ، وقول الكاتب : " تباركت أرض أجدادى ـ تباركت أرض أمى " خبر لفظ إنشاء معنى الغرض منهما الدعاء .

وقد أفادت الأساليب الخبرية فى الجزء الأخير لإظهار الفرح والابتهاج ، وقد استعمل الكاتب أسلوب القصر بالنفى والاستثناء فى قوله : " لا تنطق إلا لتحيا ، ولا تتكلم إلا لتزهر ، وتثمر " ليؤكد اختصاص الأرض بصفات الخير والجمال .

ويؤخذ على الكاتب أنه لم يسلم تعبيره مما شاع فى أدب المهاجر من مخالفة المشهور من قواعد اللغة مثل قوله : " قبل أن هجرتنى " والصواب أن يقول " قبل أن تهجرنى الصبوة " لأن التعبير بالمضارع يدل على استمرار صبوته عند الهجرة وأنها لم تفارقه . كذلك فإن استعمال : " حصبتها " فيه غموض لأن الحصباء هى الحصى ، والإنسان لا يضع فى الأرض الحصى وإنما ينقيها منه يضع السماد فالأفضل أن يقول " سمدتها " .

وفى قوله : " ها ، إن غصن الورد ينطق " تجوز فى الاستعمال وعدم دقة . فاستعمال " ها " التى للتنبيه يستوجب استعمال

الضمير بعدها ثم يليه اسم الاشارة فكان عليه أن يقول : " هـا هو ذا " ، كذلك فإن استعمال الباء في قوله " بزمانها " غير دقيق ، والأصح أن يقول " في زمانها " لأن " في" تدل على الظرفية وهو المراد هنا . كما تكلف الكاتب في جملة : "تباركت أرض أمي ـ فستويني الورد على غصن تعبي وهمي" حيث حرص أن يحدث السجع بين الفاصلتين ، فأتى بكلمة " همي ، وهي لا تفيد جديدا بعد كلمة : " تعبي " .

سادسا : التصوير :

١ ـ اتجه الكاتب في الجزء الأول من مقاله إلى رسم صورة كلية لعمله في سبيل الأمل حتى يظل حيا ، فالأوطان تخدم بالعمل لا بالكلام وخطوطها الفنية : الحركة : نحسها في : " حصبت ، ونقبت ، وسقيت ، وحجبت ، ورفعت ، ونشرت" ، والصوت . نسمعه في : " كلمت الأرض ، وجواب الأرض ، وحكمها وصوت المعول " . واللون : نشاهده في : " غصن الورد ، والنور ، وأوراق الخريف " . وقد استعان الكاتب بالصور الجزئية لإبراز عاطفته كالاستعارة المكنية في قوله : " على كتف هذا الوادي " و " هجرتني الصبوة ، هجرتني ، كلمت الأرض بيدي ، سقيت غصني من ماء الفؤاد ، وجواب الأرض وحكمها " ، والكناية في قوله : " قبل أن تهجرني الصبوة " كناية عن الطفولة ، و " كلمت الأرض بيدي" كناية عن العمل وبذل الجهد ،و "نشرت أوراق الخريف البالية " كناية عن الرعاية الزائدة ، وتوفير

الدفء للغصن في الشتاء ، والتشبيه في قوله : " رفعت فوقه سرادق ودي وهيامي " فهو تشبيه بليغ من إضافة المشبه به وهو سرادق للمشبه وهو ودي وهيامي . وسر جماله التجسيم وفيه إيحاء بالحماية من كل جانب ، وفي هذه الفقرة من المحسنات البديعية الطباق بين : عراض ، غنائي " ومراعاة النظير بين الأفعال : " كلمت ، نقيت ، حصبت ، سقيت ، حجبت ، رفعت ، نثرت " ، فقد استعملت في معنى واحد هو رعاية الغصن .

٢ ـ وفي الجزء الثاني من المقال نجد الصور الخيالية تتجه في معظمها إلى الاستعارات المكنية تأكيدا لطبيعة التشخيص التي اتجه إليها الكاتب في الحديث عن أرض وطنه ، التي استجابت له ، وأثر فيها عمله ، فقد نظرت اليه بعين العطف إلى ما قدم من جهد ، نجد ذلك في قوله " حسن في عينها اجتهادي ، الأرض كلمتني ، أجابت الأرض سؤالي ، رددت الأرض صدى حبي ، الغصن ينطق " ، وكلها توحي بتجاوب الأرض معه ، كما استعان بالتشبيه في قوله : " كالطفل " يعني أن نطق الغصن كنطق الطفل ، فالغصن ينمو بالتدريج وتظهر فيه ورقة بعد ورقة ، كما ينطق الطفل كلمة بعد كلمة ، وقوله " على شفتيه " ترشيح يقوي التشبيه . وقوله " تساقطت عرقا من أناملي ومن جبيني " كناية عن مشقة العمل والجهد المبذول .

وتتمثل المحسنات البديعية فى السجع : " أجدادى ، اجتهادى " والسجع والجناس الناقص بين : " أمى وأبى " والموازنة كما فى قوله : " فى قلب الأغصان ورود ، وفى قلب الورود بذور " .

جـ- وفى الجزء الأخير من هذا النص يرسم الأديب صورة كلية تتمثل فيها الأرض أمًّا تضم إلى صدرها طفلا هو " غصن الورد " ، وتعلمه الحب والجمال والحكمة والرجاء ، وخطوطها الفنية : الحركة ، ونحسها فى : " ضمت - انتعشت - نفخت - تحركت " والصوت : نسمعه فى : " كلمتنى - ينطق - فصاحتها ، أقوالها - جوابها " ، واللون : ونشاهده فى : " تزهر - تثمر - غصن الورد " ، كما استعان الأديب على إظهار مشاعره وعواطفه بالصور الجزئية التى نجدها فى الاستعارة المكنية فى قوله : " كلمتنى أرض أجدادى - أحيت فى الرجاء - ضمت إلى صدرها - أجابت الأرض - حكمت الأرض " فهذه الاستعارات تشخص الأرض والغصن وتبعث فيه الحياة وتمنحها القدرة على الكلام والنطق والإصغاء والتلقى ، كما نجد الاستعارة المكنية أيضا فى قوله : " الأرض لا تتكلم إلا لتحيا ، لا تتكلم إلا لتزهر وتثمر ، ما قالت : لا " ، وهى تشخص الأرض إنسانا يعلم ويربى ، كما نجد التشبيه فى قوله : " طفل حبى " من إضافة المشبه به إلى المشبه ، والمراد بالحب هنا غصن الورد ، وقوله : " أنعشته بعد أن كاد يموت " ترشيح يقوى التشبيه .

كما استعان الأديب ببعض المحسنات البديعية كالطباق بين : أنعشته، يموت" والمقابلة بين قوله: " وإن كان جوابها إيجابا فنعم ، وان كان سلبا فسكوتا أبديا " والموازنة بين الجمل والعبارات كقوله : " كل أيامها جميلة ، كل أقوالها منعشة " .

سابعا : نظرة عامة فى النص:

١ ــ هذا النص من اللون الرمزى الذى ينفذ فيه الكاتب من خلال حديثه عن غصن الورد إلى الفكرة التى يريد أن يصل إليها وهى خدمة الوطن والمشاركة فى نهضته ، عن طريق العمل البناء لا بالقول الأجوف ، وجعل الغصن رمزا لأمله ورجائه الذى يحيا ويثمر ويدوم بالعمل . ويلاحظ هنا ما فى الرمز من غموض جعل الفكرة محجبة تحتاج فى فهمها وإدراك هدفها إلى كثير من التأمل .

والنص جزء من مقال أدبى يعتمد على اختيار الألفاظ الموحية وتنسيق العبارات تنسيقا يشيع فى الكلام إيقاعا موسيقيا نتيجة لقصر الفقرات وقلة الربط بين الفقرات مع الإكثار من الصور والأخيلة التى تساعد على نقل المشاعر والتأثير فى نفس القارئ ، مما جعل النص قريبا من أسلوب الشعر لولا خلوه من الوزن والقافية ، ولذلك يسمى الريحانى : " أبا الشعر المنثور " فهو الذى مهد الطريق فى هذا اللون أمام رفاقه أدباء المهجر .

٢ – وقد امتازت أفكاره بالعمق والاستقصاء والتحليل والتعليل والترتيب فهي مرتبة يسلم بعضها إلى بعض ، فقد تحدث في أول النص عن حبه العميق لوطنه وتعلقه به متمثلا في غصن الورد وعنايته به ، وانتظاره جواب الأرض على عمله ، وكفاحه ، فأنمت الأرض الغصن فدعا لها بالخير والبركة ، ثم بين أن ذلك غير غريب من الأرض لأنها خير معلم للإنسان فقد علمته كثيرا من المعاني الإنسانية الراقية . كما تشيع في النص النزعة الإنسانية فالأرض مقدسة لأنها أرض الآباء والأجداد ، وهي فصيحة لأنها تنطق بآيات الحب والجمال ، والحياة متجددة لأن في قلب الورود بذورا ، وفي البذور الأبدية والخلود ، والإنسان يجب أن يعمل بيده ولا يكتفي بالقول بلسانه ، وأن يقوم الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن لم يستطع فليسكت ولا ينطق بما يسئ إلى أحد .

وهو متأثر في هذا المعنى الإنساني بقول النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت" .

وليس عجيبا أن يتأثر الكاتب وهو مسيحي بالمعاني الإسلامية ، فقد كان أدباء المهجر يحتفظون بروحانية الشرق ويقرؤون القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، ويشاركون المسلمين أعيادهم واحتفالاتهم بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

٣ - وقد جاء التعبير ملائما لعاطفة الكاتب الجياشة ففى حالة العمل والتعب تفيض الألفاظ إيحاء بذلك ، مثل : " سقيت غصنى من ماء الأمل والرجاء - الكلمة التى تساقطت عرقا من أناملى ومن جبينى " ، وفى حالة الأمل والرجاء وتفيض بشرا وفرحا مثل : " حسن فى عينيها اجتهادى - سترينى الورود - أجابت الأرض سؤالى - إن غصن الورد ينطق - فى قلبه أغصان " .

كذلك كانت موسيقى النص واضحة جلية نابعة من انتقاء الألفاظ الموحية وحسن تنسيقها وترتيب الأفكار وابتكارها ، وجمال الصور ، وقصر الجمل وتلاحقها بغير روابط تصل بينها مما يجعلها قريبة من أبيات الشعر ، مع الاستعانة ببعض المحسنات الجميلة الرقيقة فى مواضعها .

وتبدو ملامح شخصية الكاتب من خلال النص ، فهو واسع الثقافة ، دقيق الملاحظة ، حاد العاطفة ، بارع الخيال ، مؤمن بقيمة العمل وأثره فى إنهاض الأوطان متأثر بالثقافة الإسلامية فى معانيه ، وبالثقافة الغربية فى أخيلته ، وصوره ، له خبرة فى علم النبات .

٤ - والنص يعكس خصائص أسلوب الكاتب وهى خصائص أدب المهجر بصفة عامة ، وأهمها :

اللجوء إلى الرمز ، والحنين إلى الوطن ، والتأمل في الكون والطبيعة والحياة ، وتشخيص الطبيعة وبعث الحياة فيها ، النزعة الانسانية المتسامحة ، اللهفة والحنين إلى الوطن ، سهولة الألفاظ والعبارات مع عمق المعاني ، والتسامح في استعمال اللغة .

* * *

فهرس الموضوعات

((تم بحمد الله))